بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه ومن والاه.

وبعد ...

فإن الهزيمة التي حاقت بالعرب في عام 1967، وفقدوا فيها ما بين القنطرة والقنيطرة، وأصبح المسجد الأقصى في قبضة إسرائيل. كانت إحدى الكوارث الكبرى في تاريخ هذه الأمة ... ولا يشبهها إلا نكبة التتار حين دخلوا بغداد، ودمروا الحضارة الإسلامية، وأسقطوا الخلافة العباسية، وخربوا من الدور، وأتلفوا من الكتب، وذبحوا من البشر، ما لم يكد يحدث مثله في التاريخ.

ومن حق هذه القارعة الهائلة في تاريخ العرب والمسلمين أن تتناولها الأقلام بالتحليل والدراسة لتأخذ منها العبرة، وتقتبس منها الفطنة.

ولقد كنت راغبًا عن الكتابة في هذا المجال، ليقوم به من هم أقدر مني عليه، وأخص به من رجال الفكر الإسلامي.

ولكني وجدت شتى الأقلام تتناول هذه القضية من زواياها المختلفة، وجلها غريب عن هذه الأمة وتراثها وعقائدها وقيمها الأصيلة.

لقد ساءني أن أجد بين قومي من يعللون الأحداث الكبار ببساطة وضحالة

عجيبة. فكارثة 1967 الكبرى سببها غلطة عفوية، أو خيانة من بعض الأشخاص. ولولا غلطة فلان، أو خيانة علان لتبدل الموقف من هزيمة ساحقة إلى نصر مؤزر.

وغاظني أن أجد من الناس من يتجاهل الحقائق الناصعة، وينكر الشمس في رابعة النهار ليثبت ما يستحق النفي وينفي ما يستحق الإثبات.

ومن هنا قويت عزيمتي على الكتابة.

ثم كان أن طلبت إلى مجلة «حضارة الإسلام» الغراء كتابة مقال لها عن «دور الفكر في قضية فلسطين» في عدد خاص تصدره بشأن القضية، فكان ذلك هو السبب المباشر لكتابة هذه الصحائف التي أقدمها للقاريء اليوم.

وأنا لست من محترفي السياسة الحزبية، ولكن ديني علمني أن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

والذي يهمني في القضية - بصفة أساسية - هو الجانب الفكري فيها.

ولهذا فإني أتحدث هنا من زاوية الفكر أكثر من زاوية السياسة والتاريخ. والذي يعنيني أولًا هو مناقشة الأفكار وتصحيحها قبل أن يعنيني سرد الوقائع وتصنيفها.

إن مهمة الفكر في القضية أن يعمق الوعي بها، ويزيح الضباب والقتام من حولها، ويجليها للعقول والبصائر كما هي بلا مغالطة ولا تزييف ولا غلو ولا تحيز.

مهمة الفكر أن يرد الأشياء إلى أصولها، ويربط الحوادث بأسبابها البعيدة

العميقة ولا يكتفي بما يطفو على السطح، ولا يخدع بما يبدو للناظر المتعجل كأنه ماء وهو في حقيقته سراب.

مهمة الفكر أن يعرفنا: من نحن؟ وما رسالتنا؟ وما دورنا؟ ومن عدونا وما حقيقته؟ وماذا نملك وماذا يملك؟ حتى نكون على بينة من أمرنا.

مهمة الفكر أن ينظر إلى الغد البعيد، ولا يخطف بصره الحاضر القريب، إنما يستفيد من درس الأمس، وآلام اليوم، لآمال الغد.

مهمة الفكر أن يوضح لنا الهدف ويرسم لنا الطريق، ويضع أيدينا على العقبات والمعوقات.هذه هي مهمة الفكر وهذا دوره. وهذا ما يجب أن يقوم به وخاصة في ديار الإسلام. فهل أدى الفكر دوره في ذلك؟

كان المفروض أو المظنون بعد نكبة 1967 أن يصحو الفكر السكران، ويستقيم الفكر الأعوج، ويظهر الفكر الأصيل، ويختبيء الفكر الدخيل السطحي والفكر الجبان. ولكن خاب الظن وطاش السهم. وأصبحنا نقرأ ونسمع ألوانًا من الفكر في تفسير الأحداث وتعليل الوقائع، لا تستحق إلا الرثاء.

إن مأساة فلسطين هي نذير إلهي للمسلمين ليعودوا إلى دينهم بعد طول غياب فيستيقظوا من سبات، ويحيوا من موات.

والذي نؤكده من هذه الصحائف هو ضرورة العودة إلى الإسلام ... الإسلام الصحيح ... الإسلام الشامل الذي يعيدنا - كما كنا - خير أمة أخرجت للناس.

وبدون هذه العودة أجد المصير مخيفًا، والمستقبل يحفه الرهبة والظلام.

ومطامع إسرائيل لم تنته بعد، ولم يكفها كل ما اغتصبته لتشبع نهمتها. فلا زال في أحلامها أراض في العراق ومصر وفي الحجاز: في المدينة عند قبر الرسول ومسجده صلى الله عليه وسلم .

حيث كان يقيم يهود بني قينقاع وقريظة والنضير. وغيرهم من يهود خيبر والحجاز.

فلنصدقن الله ليصدقنا الله، ولنغضب لله ليغضب لنا، ولننصره حتى ينصرنا. فقد قال تعالى: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ 7 وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ 8 ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ}** [محمد: 7 - 9].

فكيف ننتظر نصر الله وأزمتنا في أيدي الذين يكرهون ما أنزل الله؟

هذا هو رأيي الشخصي في المخرج من هذه النكبة الكبرى، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

شعبان 1388هـ - نوفمبر 1968م

د. يوسف القرضاوي

لماذا انهزمنا؟

ما موقفنا بعد هذه النكبة الكبرى؟ نكبة 5 حزيران (يونيو)[1] 1967، وهي النكبة الثانية أو الثالثة في أقل من عشرين عامًا؟ من 1948 حتى 1967.

ما موقفنا؟ وما دورنا؟ وما نصنع وقد خاب آمال كبار، وتبخرت أحلام عذاب، وتهاوت آلهة كان قوم منا يطوفون بها ويرجون نفعها عند الشدة، وعونها عند الكربة: **{فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ}** [هود: 101].

هذا هو السؤال الذي يدور على كل لسان ويجول في كل فكر، ويشغل كل منتدى، ما موقفنا وماذا نصنع؟ ماذا علينا لنغسل العار ونحرر الديار، ونطرد منها اللصوص الغاصبين ونردها إلى أهلها الشرعيين.

والجواب الذي لا يختلف فيه اثنان: إن علينا أن نفعل ما يفعله العقلاء إذا تورطوا في المضايق وأحاطت بهم الشدائد، وسدت عليهم المسالك: علينا - قبل كل شيء - أن نفكر. وألا تمر بنا الأحداث الضخام ونحن في غفلة لا هون وفي غمرة ساهون ... علينا أن نفكر في نكبة الأمس لنستخلص عبرة للغد. ولا نكون كالذين وصف الله موقفهم من عبر التاريخ فقال: **{أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى**

---

(1) وهي التي سموها «النكسة» ولا أدرى لماذا؟ هل انتصرت قضية فلسطين قبل ذلك ثم انتكست في حزيران؟ اللهم إلا إذا عدوا وجود البوليس الدولي، وضياع مضايق تيران وشرم الشيخ في 1956 انتصارًا ظفرت به قضية فلسطين ... أما الواقع فالقضية الفلسطينية تسير - على أيدي هؤلاء - من سيء إلى أسوأ، ومن أسوأ إلى الأسوأ!

ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ} [الحج: 46].

وليس مطلوبًا منا أن نسير في الأرض ولا أن نضرب في أرجائها لنرى ونسمع ونعتبر ونعقل، فنحن نعيش في قلب العبرة، بل نحن أصحابها وصناعها.

وإن أمة دعاها كتابها إلى التفكير والنظر في عشرات الآيات من شتى سوره, وجعل دينها التفكير فريضة وعبادة، وتعلمت من تراثها: أن تفكير ساعة خير من عبادة سنة - لجديرة أن تدع الارتجال والتهريج، وتفكر لغدها بأناة وعمق، وأن تثبت وجودها بحسن تفكيرها، فمن قابل قال ديكارت «أنا أفكر، إذن أنا موجود».

وإني أخشى أن يقول فينا قائل: أنتم غير موجودين لأنكم لا تفكرون.

وأول ما يجب علينا أن نفكر فيه، أن نسأل أنفسنا: لماذا انهزمنا؟ فإن الذي لا يعرف لماذا انهزم لا يعرف: كيف ينتصر.

لا أريد أن أسأل عن هزيمة سبع دول عربية سنة 1948، فقد يكتفي الكثيرون بأن الذين سببوا الهزيمة لفظتهم الشعوب وكنسهم التاريخ بمكنسته وأصبحوا نسيًا منسيًا. ولا داعي - على أية حال - لنبش القبور واستثارة الرمم.

وإنما الذي يعنينا هنا أن نسأل. لماذا انهزمنا في 1967 وبعد تسعة عشر عامًا من النكبة الأولى، وبعد أن قامت في عدد من البلاد العربية حكومات ثورية تقدمية متحررة! تنفق على ميزانيات جيوشها مئات الملايين في تسليحها وتدريبها وإعدادها ليوم اللقاء، وساعة الثأر!!

ألوان من التفكير في سبب الهزيمة:

أعرض هنا - بكل أمانة - ألوانًا من التفكير ظهرت بعد النكبة الثانية تحاول أن تفسر الواقع وتعلله: وهي ألوان بعضها يستدر الدمع، وبعضها يستفرغ الضحك من الأفواه. وشر المصائب ما يضحك.

هزيمة ولا هزيمة:

كان من غرائب التفكير ما سمعناه بعد النكبة من بعض المسئولين في أكثر من بلد عربي: إننا لم نهزم ولم نخسر المعركة!

قال هؤلاء: إن العدو يهدف إلى إسقاط النظام الثوري قبل أن يهدف إلى احتلال الأرض، فإذا بقى النظام - رغم خسارة الحرب - ولم يسقط، فقد فشل العدو، وعاد مدحورًا مخذولًا[2].

هذا هو المنطق السحري الذي روجه هؤلاء: إن احتلال الأرض ليس شيئًا مهمًا، وخسارة الأرض ليس لها قيمة كبيرة، إذا بقى النظام الحاكم. وإن كانت هذه الأرض أضعاف مساحة إسرائيل، وإن كان حجم الخسارة ما بين القنطرة والقنيطرة!

فيا عجبا! أليست قضية فلسطين من أساسها قضية أرض احتلها عدو؟ وهل قامت الصهيونية إلا من أجل الأرض؟ وهل الأوطان التي يدافع عنها الناس ويقاتلون عليها إلا أرض؟

وهل صحيح أن الأنظمة الثورية العربية تعاديها إسرائيل وتخاصمها إلى

---

(2) كان الحكم الثوري في سوريا أول من أوحي إليه باستخدام هذا التعبير المبدع! ثم ردده آخرون!!

حد إشعال الحرب من أجل إسقاطها؟ وهل الزعماء الثوريون هم «البعبع» الذي تخافه إسرائيل وترهب سطوته؟ وهل في تاريخ الثوريين وموقفهم من قضية فلسطين ما يؤيد هذا المنطق العجيب؟

كلا. فليس هناك أفضل من هؤلاء الثوريين لإسرائيل. فهم في شغل عنها بمحاربة القوى الوطنية المخلصة واضطهادها وكتم أنفاسها. هم في شغل عن تعبئة الأمة بشئون الحزب، وعن آمال الشعب بمطامع الفئة الحاكمة، وعن قتال إسرائيل بقتال الرجعية المزعومة. فالحزب عندهم فوق الأمة، والحكام «الثوريون طبعًا» فوق الشعب. والمذهب فوق الدين، والرجعية أخطر من إسرائيل.

ولا عجب أن قيل في بعضهم: إنهم لم يحاربوا، ولا ينوون أن يحاربوا[3].

ولا نقول لهؤلاء الثوريين: ما ذنب النظام الأردني - الرجعي - حتى يضرب هذه الضربة، ويفقد الضفة الغربية والقدس؟ أم لعل رأيهم تغير في حكم الأردن وملك الأردن؟!

● حكاية التدخل:

ذاك لون من المنطق المتبجح الجريء الذي سمعه الناس بعد الهزيمة: إننا لم ننهزم.

ومثل هذا المنطق في العوج: منطق الذين اعترفوا بوقوع الهزيمة، ثم اخترعوا لتبريرها وتعليلها حكاية التدخل الاستعماري الأمبريالي الأمريكي.

والذين اخترعوا هذا وأذاعوه يعلمون أنهم كاذبون[4]، ولكنهم خجلوا كيف

(3) هكذا قال الرئيس المصري في ثوريي سوريا.

يواجهون الشعب بعد أن ملأوا الآفاق بالتهديد والوعيد، فهداهم الشيطان إلى هذا «المخدر» الذي ثبت فشله وبطل مفعوله بسرعة.

ولو صح أن تدخلًا استعماريًا حدث، فهل هذا عذر يعفي أصحاب السلطان من المسئولية؟ كلا، فالمفروض أن مثل هذا يتوقع، ولابد أن يواجه كل احتمال بالاستعداد، وطالما قال الذين يملكون القول: سنؤدب إسرائيل ومن وراء إسرائيل.

ومهما يكن فقد تراجع الذين اخترعوا هذا «المخدر» عنه واعتذر وا عن صنعه وترويجه. فلا داعي إلى الإطالة فيه.

● نكبة سببها غلطة:

وإذا كانت الهزيمة حقيقة واقعة - على مرارتها - ولم يكن سببها التدخل المزعوم. فما سببها إّن؟ وقد استعددنا لها تسعة عشر عامًا، واشترينا لها السلاح من كل مكان وأعددنا لها قوى البر والبحر والجو؟

هنالك طفق الكتاب والمعقبون يفتشون عن سبب هذه الكارثة التي لم تكن متوقعة إلا عند قليلين، ذوى البصائر، الذين يفقهون سنن الله في خلقه، ويقيسون قوى الأمم والجيوش بالكيف لا بالكم، وبالروح لا بالمادة، وبالمعنى لا بالصورة، وبالعمل الهادئ لا بالصياح المدوي.

قال بعض الكاتبين: إننا هزمنا بسبب غلطة ... غلطة حربية لا غير، هي التي جلبت كل هذا العار، وكل هذا الدمار، كنا نتوقع أن يأتينا العدو من

---

(4) ثبت يقينًا كذب هذا الادعاء من مذكرات الملك حسين عن حرب «حزيران» وكتاب «المؤامرة ومعركة المصير» للسيد سعد جمعة رئيس وزراء الأردن، وقت الحرب.

الشرق أو الشمال فجاءنا من الغرب وأخذنا على غرة وسبق بالضربة الأولى - وهي نصف المعركة كما يقال - وحطم الطيران كله، ودمرت المطارات قاطبة، وفقدنا أكبر قوة جوية عربية في ثلاث ساعات. ثم تتابعت الهزائم، وتلاحقت الخسائر. فخسرنا 80% من معدات الجيش المصري - أكبر قوة عربية ضاربة - وغنمت إسرائيل من العتاد والذخائر والتموين ما لم يخطر لها على بال. وسقطت عزة وسيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان قبل أن تتم دورة الأسبوع، وأصبح الطريق مفتوحًا أمام إسرائيل إلى العواصم الكبرى: القاهرة ودمشق وعمان. ولم يكن هناك أية مقاومة لو أرادت إسرائيل الزحف إلى العواصم، كما اعترف بذلك رئيس مسئول.

كل هذا نتيجة غلطة: ظننا العدو لا يبدأ بالهجوم، ولكنه خيب ظننا وبدأ، وظنناه - لو بدأ - يأتينا من جهة فجاءنا من أخرى. وكأنما كان على العدو أن يعطينا خبرًا مقدمًا عن الجهة التي ينوي منها المجيئ إكرامًا لخاطرنا!!

ولماذا لا نتوقع أن يبدأنا العدو بالهجوم في أية لحظة؟ وكيف نستبعد أن يجيئنا من أية جهة؟ وكيف لا نأخذ لكل احتمال أهبته؟ لو كان قادتنا يعرفون شيئًا اسمه «صلاة الحرب» في الإسلام، وقرأوا ما جاء بشأنها في القرآن لعرفوا قوله تعالى: **{وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ}** [سورة النساء: الآية 102][5]. ولكنهم في شغل عن الصلاة بالترفيه وأحفال الترفيه.

---

(5) وأولها: **{وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...}.**

ولو كانوا يفقهون السيرة النبوية لعلموا من غزوة «تبوك» أن النبي صلى الله عليه وسلم حين تبين له النية العدوانية عند الروم، لم ينتظر حتى يغزوه في عقر داره، بل أخذ زمام المبادرة، فبدأهم قبل أن يبدأوه، وغزاهم قبل أن يغزوه. وكذلك كان موقفه من «هوازن» لما علم بتربصهم ونيتهم هاجمهم قبل أن يهاجموه(6).

ولو كانوا يقرأون القرآن لوعوا أمر الله تعالى للمؤمنين: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ}** [النساء: 71].

وأنا وأنت أيها القارئ لا نفهم في الشئون العسكرية فهم المتخصصين، ولا ندري كم كان يجب أن يكون في الجو من طائراتنا وكم كان يبقى في مطاراته. ولم نقرأ مذكرات «روميل» و«مونتجمري» عن حرب الصحراء. ولا نعرف: هل وضع 80% من عتادنا في خط النار مرة واحدة سياسة عسكرية سليمة أم لا؟ أنا وأنت لا ندري هذا ولا نستطيع الحكم فيه، وعلينا أن نسأل أهل الذكر ممن يعلمون.

ولكن الذي ندربه جيدًا أن المفروض فيمن يواجهون مثل هذا الموقف أن يحتاطوا للمفاجآت ويعدوا لكل أمر عدته.

والحقيقة أن الهزيمة أخطر وأكبر وأعمق من أن تعلل بغلطة عسكرية

---

(6) قال ابن القيم في «زاد المعاد» في بيان ما في غزوة حنين من العبر: «إن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم كما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «هوازن»، حتى لقيهم بحنين». ولكن قادتنا قوم تقدميون لا يليق بهم أن يرجعوا أربعة عشر قرنًا ليتعلموا من محمد رسول الله!!

نشأت من اجتهاد أخطأ. فإنها لم تكن مجرد تقهقر أو انسحاب من معركة، إنما هو انهيار لم نسمع بمثله. حتى الدول الصغرى التي سقطت أمام الجيوش النازية المباغتة قاومت أكثر من هذا. ولم تسقط بهذه السهولة وهذه السرعة مع أننا نحن الذين بدأنا التحدي واستعرضنا العضلات.

إنها إذن ليست غلطة منشؤها الاجتهاد الذي يعذر صاحبه إن أخطأ - أو يؤجر - بل هي جريمة كبرى مصدرها الأنانية والهوى والطغيان.

خذ مثلًا: موقف قادة الطيران الذين قضوا ليلة النكبة في حفل ساهر راقص، ونواقيس الخطر تقرع آذانهم، والعدو واضع أصابعه على الزناد، والبركان على وشك الانفجار في أية ساعة من ليل أو نهار. وهل يعد سلوكهم هذا اجتهادًا أم جناية دفع إليها انحلال الأخلاق وغلبة الشهوات، وفساد الضمائر، وانتقاض عرا الإيمان؟

ليست المسألة إذن غلطة أدت إلى خسارة الحرب، فإن هذه الغلطة وما تبعها من غلطات كانت نتيجة ولم تكن سببًا. كانت نتيجة حتمية لحياة واتجاه وسلوك لابد أن يجر إلى هذه النهاية أو ما يشبهها. ثم ... من المسئول عن هذا الغلط؟

إن الصياد الذي يصيب إنسانًا بطريق الغلط عليه شرعًا أن يدفع ديته مسلمة إلى أهله، وأن يكفر عن غلطه بتحرير رقبة مؤمنة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

فكيف بمن قتل ألوفًا مؤلفة وشرد عشرات الألوف وأضاع أوطانًا فسيحة؟

ولكن المشكلة كيف نعرف المسئول، وإذا عرفناه فكيف نحاسبه؟ ومن

يملك محاسبته؟

وهب أن المسئول الأول عن النكبة اعترف بلسانه أنه مسئول، وأنه يتحمل المسئولية كاملة، فأين الذي يتولى الحساب، ويتولى بعده الجزاء؟

ولكن لماذا الحساب والعقاب؟ ألم نقرأ في السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد انهزم في «أحد»؟ أفنحن أفضل من رسول الله وأكرم عند الله؟ هكذا يتشدق بعض الناس.

ومن المريب حقًا أن قومًا لم يتخذوا رسول الله قدوة في حياتهم

الخاصة ولا العامة، ولم يجعلوا سنته مصدرًا لتوجههم ولا تفكيرهم، يعثرون على غزوة «أحد» وما أصاب المسلمين فيها من هزيمة وانكسار، فإذا هو يقولون: أننا لسنا أول من هزم. إن لنا في «أحد» أسوة وسابقة. ولو صدقوا لرجعوا إلى أنفسهم باللائمة وتلوا قول الله تعالى: **{أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ}** [آل عمران: 165].

لو صدقوا في اقتدائهم بـ «أحد»، لغيروا من اتجاههم وأعلنوا ندمهم وتوبتهم وقالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا.

لو صدقوا في اقتدائهم بـ «أحد» لأعدوا أنفسهم لمعركة جديدة ولم يعتمدوا على أوهام بعيدة تعفيهم من تبعات الجهاد المقدس، ولم يجروا وراء أوهام الحل السياسي وما شابهها.

أما أهل «أحد» فخرجوا من اليوم الثاني، وجراحاتهم لم تجف دماؤها، للقاء عدوهم المغرور بنشوة الظفر: **{ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ 172 ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ**

ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ} [آل عمران: 172 - 173].

- الخيانة:

ويسلك آخرون طريقًا قصيرة لتعليل الهزيمة، فقالوا: إن سببها هو الخيانة.

ومعنى الخيانة: بيع الوطن لإسرائيل في مقابل كسب شخصي أو حزبي أو طائفي، ونحن لا نستبعد أن يكون هناك خونة باعوا أوطانهم من أجل عرض يسير من الدنيا، يصيب أشخاصهم أو حزبهم أو طائفتهم. ومن لا إيمان له لا أمانة له. ومن لا دين له لا عهد له. ومن خان الله ورسوله لا يكثر عليه أن يخون الأوطان.

ولكننا نستبعد أن يكون الجميع قد خانوا، فإن تسليم الوطن للعدو لا يقدم عليه إلا فرد حاقد على الشعب، عدو له. وهذا يندر وجوده في أبناء المسلمين إلا قومًا كفروا بدينهم وآمنوا بعقائد أخرى.

فإن صح أن جبهة خانت قومها، وباعت للعدو وطنها - وطن المسلمين - فكيف سقطت سائر الجبهات، وكيف حاقت الهزيمة بالجميع؟

الحق أن الخيانة - وإن ثبت أنها وقعت جزئيًا - ليست هي السبب العام للهزيمة الكبرى والانهيار المروع الذي أصاب الجبهات كلها.

والسر في تركيز بعض الناس على تهمة الخيانة هو حرصهم على استمرار الأوضاع الظالمة والأنظمة الكافرة في البلاد العربية كما هي، وإنما يجب فقط أن تتغير الوجوه والأدوار فوق مسرح السياسة العربية. أما موضوع الرواية فيبقى بلا تبديل ولا تحويل.

معنى الاتهام بالخيانة: أن الأوضاع سليمة والأنظمة لا غبار عليها، والحكم لا عيب فيه. إنما العيب يتركز في شخص أو أشخاص إذا تغيروا تغير التاريخ وتغير المصير.

وبعض الناس يسهل عليهم أن يخونوا جيشًا بأكمله بل شعبًا بأسره لكي يبرئوا شخصًا واحدًا من كل تفريط، ويعفوه من كل تبعة. لأنه عندهم «الإمام المعصوم» والبطل الأسطوري الذي يصيب ولا يخطئ، ويغلب ولا يغلب. فإذا غلب يومًا فليس العيب منه بل من الآخرين من الجيش أو من الشعب. من الخونة الذين سرقوا منه «خاتم سليمان» الذي كان يصنع به المعجزات، ويسخر العفاريت!

- التخلف الحضاري:

وقال قوم: إن سبب الهزيمة هو: تخلفنا الحضاري، واختلاف مستوى التعليم بيننا وبين إسرائيل. وإذا التقى مجتمع متخلف ومجتمع عصري متحضر فالغلبة للمجتمع المتحضر لا محالة.

كتب هذا الكلام بعض «التقدميين» أو «الثوريين» العرب عقب الهزيمة، فرد عليهم الأستاذ محمد جلال كشك، بمقال أصابهم في مقاتلهم، ومما جاء فيه:

«والخطورة الحقيقية في هذا التفسير، تكمن في أنه يحاول أن يضلل الجماهير العربية عن القضية الرئيسية، قضية العقيدة ... الدين

«فليس ثمة خلاف على أهمية الآلات، ولا أظن أن مجتمعًا من المجتمعات لا يعرف أهمية أن تكون لديه طائرات ودبابات من أحدث طراز، حتى ولو لم

يبذل أي جهد في امتلاكها ... وشهد الله وشهد التاريخ أن الجماهير ما بخلت بشيء في سبيل أن تمتلك، وما رفضت يومًا أن تتعلم.

«ولا نظن أن الجنس البشري بحاجة إلى من يعلمه فضل التكنولوجيا، وأهمية المخترعات الحديثة ... وليس في العرب اليوم من يفضل الحمار على السيارة ... أو لمبة الغاز على المصباح الكهربائي ... ولو كان لثوار فيتنام من سبيل إلى قنبلة ذرية ... لدفعوا فيها ملايين من أرواح شعبهم.

«لماذا إذن هذا الجدل؟ وأين هو الكشف العبقري الذي اكتشفوه ... وهل كنا بحاجة إلى مثل هزيمة 5 يونيو لنكتشف أهمية العلم؟

«وما الذي حال بيننا وبين «العصرية» طوال هذه السنوات؟ وهل عرفنا من العصرية، إلا منع الطلاق وتعدد الزوجات، وإنشاء الفرق الراقصة، والهوس في النقاش حول الاختلاط في المدارس كأنها قضية مصيرية»؟

ويمضي الأستاذ كشك في رده فيقول:

«ما أعجب أن تعمى قلوبنا عن تاريخنا، فلا نستخلص منه العبرة والتجربة.

«فعندما خرج الحفاة العراة، رعاة الشاء من الجزيرة العربية يدكون ملك كسرى، ويجبرون قيصر على إلقاء نظرة كسيرة على سوريا، وهو يقول: وداعًا يا سوريا ... وداعًا لا لقاء بعده.

هل كان العرب متفوقين تكنولوجيا على فارس وروما؟ هل كان المجتمع الإسلامي - بالمقاييس المادية - أكثر عصرية وتمدينًا من المجتمع الروماني بكل حضارته وعلمه ومدنيته؟ أم كان أكثر تقدمًا وتفوقًا على عرش فارس

ومدنية الفرس، وعلم الفرس، وصناعة الفرس؟

«لا ... فالعربي الذي أسر ابنة كسرى، افتدوها منه، فطلب ألف درهم! قالوا: لو طلبت مائة ألف لدفعنا ... رد العربي المنتصر: كنت أحسب أن الألف نهاية العدد!

«وحكى عبيد بن جحش السلمي، قال: «لقد رأيتنا وإنا لنطأ على ظهور الرجال، من جيش الفرس، وما مسهم سلاح، قتل بعضهم بعضًا، ولقد رأيتنا أصبنا جرابًا من كافور، فحسبناه ملحًا لا نشك أنه ملح، فطبخنا لحمًا، فجعلنا نلقيه في القدر فلا نجد له طعمًا، فمر بنا رجل معه قميص فقال: يا معشر العرب، لا تفسدوا طعامكم فإن ملح هذه الأرض لا خير فيه، هل لكم أن تأخذوا هذا القميص؟ فأخذناه منه وأعطيناه منا رجلًا يلبسه. فجعلنا نطيف به ونعجب منه، فلما عرفنا الثياب «تأمل»! إذا ثمن ذلك القميص درهمان.

«بهؤلاء الذين لا يعرفون في العدد أكثر من ألف ... والذين لا يعرفون الكافور من الملح ... والذين ما كانوا بعد قد عرفوا الثياب ... انتصر الإسلام، ودك ملك كسرى، وانتشروا يحكمون الأرض من البحر الأبيض المتوسط إلى أواسط آسيا ... أفكان نسبة هؤلاء للحضارات العريقة المحيطة بهم ... أقرب من نسبة الفلاح العربي للجندي الإسرائيلي؟

«فلماذا انتصر هؤلاء ... وعجزنا نحن؟

«لقد فاجأهم الفرس بسلاح ما عرفوه ولا جربوه ... الفيل ... حتى إنه لما جيئ به إلى المدينة بعد ذلك ... طافت به النسوة متعجبات، وهن يقلن: «هذا من صنع الفرس»!! ولم يصدقن أنه من مخلوقات الله! ظنوه آله أو حيلة

فارسية؟!

«ومع ذلك لم يجبنوا ولا فروا أمام فيل ...

«يروى الطبري: «ولما رأى سعد الفيلة تفرق بين الكتائب، أرسل إلى أولئك المسلمة من الفرس الذين أسلموا فدخلوا عليه، فسألهم عن الفيلة، هل لها مقاتل؟ فقالوا: نعم، المشافر، والعيون لا ينتفع بها بعدها ... فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو: اكفياني الأبيض، وكانت كلها آلفة له، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا في خيل ورجل فقالا: اكتنفوه لتحيروه، وهما مع القوم، فلما خالطوهما اكتنفوهما فنظر كل واحد منهما يمنة ويسرة، وهما يريدان أن يتخبطا والفيل متشاغل بمن حوله، فوضعا رمحيهما معًا وفي وقت واحد في عيني الفيل الأبيض، فقبع ونفض رأسه، فطرح سائسه، ودلى مشفرة فنفخه القعقاع، فرمى به، ووقع لجنبه، فقتلوا من كان عليه ...».

«ما الذي يدفع القعقاع وعاصمًا إلى مواجهة الفيل الذي ما عرفوه ولا قاتلوه ... بالرماح؟! وكيف تقوى أعصابهما إلى حد أن يضعا معًا وفي وقت واحد الرمع في عيني الفيل! وفوقه عشرون مقاتلًا؟!، وما الذي يجعل القعقاع وعاصم اليوم يغادران دبابة زنة ستين طنًا من الصلب لو آوى إليها ابن نوح لعصمته من الماء والنار ... إلا من أمر الله ...» [7].

(7)«الوعي الإسلامي» العدد الرابع والثلاثون - السنة الثالثة - تحت عنوان: «الطريق إلى مجتمع عصري».

● الدين هو السبب:

وأعجب ما قرأنا في تعليل الهزيمة أن سببها هو الدين: الدين؟!

هكذا كتب الأديب المهجري المعروف «ميخائيل نعيمة» في استفتاء أجرته مجلة «الآداب» البيروتية بعد نكبة حزيران. وسكتت عليه المجلة سكوت المقر.

قالت المجلة: ما هو في رأيكم الدرس الأكبر الذي يحسن بالعرب أن يتعلموه من الهزيمة؟

وقال الكاتب: «في رأيي أن الدرس الأكبر الذي يجب أن يتعلمه العرب من هزيمتهم النكراء: أن الدنيا لا تساس بالدين. فالدين موطنه السماء التي لا يعرفها أحد، والدنيا موطنها الأرض التي لا يجهلها أحد ...».

إلى أن يقال: «فإذا كان العرب ممن يعتقدون أن حقوقهم لا تصان ولا تسترد إلا بالحرب، وأن الحرب لا يكسبها إلا السلاح، وأن السلاح لا يخلقه إلا العلم والمال، فما عليهم إلا أن يتعبدوا للعلم والمال، لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم»!![8].

وهذه الكلمات إنما هي خيال شاعر، لا فكرة حكيم. وهو مع هذا خيال متهافت سقيم. والخطورة - كما قال الأستاذ محمد المبارك[9] - أن يظن كل أديب كبير، مفكرًا كبيرًا. وليس الأمر كذلك. إن الشاعر الذي يعيش هناك وراء البحار، يظن العرب هنا يقيمون في زوايا العبادة، بين ليل قائم ونهار

---

(8) مجلة الآداب - عدد تموز (يوليو) 1967.

(9) في كتابه «جذور الأزمة في المجتمع العربي».

صائم، ناءت رؤوسهم بحمل العمائم، وأيديهم بحمل المسابح. فلما شبت نار الحرب دخلوها وسلاحهم التمائم والتعاويذ. وهذا الخيال كله باطل. فالحكومات التي اشتركت في الحرب حكومات عصرية تعتمد على أحدث الأساليب، في الأسلحة والتدريب، وهي كلها حكومات علمانية تفصل الدين عن الدولة، إن لم يقم بعضها باضطهاد الدين والتضييق عليه. ولو أن الشاعر المهجري قال: «إن سبب النكبة هو التدين المدخول أو الزائف» لكان له وجه.

ولقد كان الشاعر نزار قباني الذي لم يعرف باتجاه روحي - كميخائيل نعيمة - أدنى إلى السداد في تعقيبه على النكبة بقصيدته الشهيرة «هوامش على دفتر النكسة» فقد جاء فيها:

«لا تلعنوا السماء. إذا تخلت عنكمو. لا تلعنوا الظروف. فالله يؤتي النصر من يشاء ... وليس حدادًا لديكم يصنع السيوف».

وصور الفراغ الروحي والأخلاقي للأمة فقال:

«جلودنا ميتة الإحساس.

أرواحنا تشكو من الإفلاس.

أيامنا تدور بين الزار والشطرنج والنعاس.

هل نحن خير أمة قد أخرجت للناس»؟

والجواب بداهة: لا. فالله قد خاطب هذه الأمة بقوله: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}** [آل عمران: 110].

فأين منا هذه الخصائص والنعوت؟

ويصف «نزار» التدين الكاذب المنحرف فيقول:

«نقعد في الجوامع.

تنابلًا كسالى.

نشطر الأبيات أو نؤلف الأمثالا.

ونشحذ النصر على عدونا ... من عنده تعالي»!

وعلى أية حال، قد كان الدين معزولًا - تمامًا - عن المعركة، ولم يكن له فيها دور إيجابي ولا سلبي. لا قبل المعركة ولا في أثناء المعركة.

كان هناك حرص شديد من أكثر المسئولين على إبعاد العنصر الديني عن الحرب، لأسباب واعتبارات لا محل لها هنا.

بل الذي يذكره الشعب العربي - قبل المعركة بأيام - أن الدين كان للهجوم والسخرية والقذف بالحصى والحجارة حتى اجترأ مجترئ أن يكتب في صحيفة علنية رسمية هذه العبارات:

« ... والطريق الوحيدة لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد، الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع والرأسمال والاستعمار والمتخمين وكل القيم - التي سادت المجتمع السابق - ليست إلا دمي محنطة في متاحف التاريخ»[10].

ولقد شهدت بنفسي في قطر في الساعات الأولى للمعركة، اجتماعًا في

(10) من مقال المدعو «إبراهيم خلاص» في مجلة «جيش الشعب» السورية.

مقر «منظمة التحرير» ضم المئات بل الألوف من الناس، ووقف رجل عالم فاضل من أهل البلاد يخطب في هذا الجمع وكان مما دعا إليه في كلمته: أن ارجعوا إلى الله وتمسكوا بدينه ينصركم على عدوكم ... فما كان من بعض الشباب المفتونين بعبادة الأوثان البشرية إلا أن قالوا: لا دين إلا السلاح؟

هذه هي الروح التي كانت سائدة هنا وهناك.فكيف يزعم زاعم أن الدين سبب الهزيمة؟!! وأن علينا أن نتخلى عن الدين لننتزع النصر من أحشاء الهزيمة؟

ثم أي دين يعنيه الكاتب؟ إنه لا شك يعني الدين على وجه العموم، والإسلام على وجه الخصوص. فهو الدين الذي تعتنقه أغلبية الأمة، وتنص دساتير دولها على أنه دين الدولة الرسمي.

فهل يمكن أن يكون الإسلام سبب الهزيمة، أي هزيمة؟ كلا.

وكيف يكون ذلك وهو الذي يقول كتابه: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ}** [الأنفال: 60]. **{وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً}** [النساء: 102]. **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا}** [النساء: 71].

ويحث رسوله على الصناعات الحربية والفنون الحربية فيقول: «إن الله يثيب بالسهم الواحد ثلاثة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، ومنبله، والرامي به» ويقول: «من تعلم الرمي ثم نسيه فليس مني». «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي».

ويجعل الجهاد جزءا من شخصية المسلم وحياته فيقول: «من لقى الله

وليس فيه أثر من جهاد لقى الله وفيه ثلمة». «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق» ويرفض الفكرة الجبرية التي تهمل الأسباب والسنن الكونية بدعوى الإيمان بالقدر أو التوكل، فلما سئل عن الأسباب، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ فقال: «هي من قدر الله».

وأنكر على رجل غلبه آخر فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل».

وحين ترك رجل ناقته أمام المسجد سائبة بزعم التوكل قال له: «اعقلها وتوكل».

إن دينًا هذا شأنه وتلك بعض تعاليمه، يستحيل أن يكون سببًا لهزيمة ... أي هزيمة.

- أخطر من النكبة:

تلك ضروب من التفكير ظهرت على الساحة العربية بعد نكبة 1967، تحاول تعليلها أو تفسيرها. منها ما هو سيء التصور، ومنها ما هو سيء القصد، ومنها ما جمع بين السوءين.

وهذا التفكير الأعوج في تعليل هذه الطامة أو القارعة هو الذي سماه كاتب عربي مسلم: «أخطر من النكسة»[11].

وهذا حق. فإن أخطر من المرض أن تظل تتعاطى أسبابه ومضاعفاته من

---

(11) عنوان لكتاب أصدره الأستاذ محمد جلال كشك منذ أشهر. ويبدو أن الكاتب استعمل كلمة «النكسة» لشيوعها على الأقلام والألسنة.

حيث تدري أو لا تدري. إن نتيجة هذا السلوك شيء واحد لا مفر منه، اسمه «الموت».

وإذا كانت أمتنا لا تريد أن تموت، فلتفتش عن السبب الحقيقي الذي جرها إلى هذه الهاوية: ما هو؟ فإن تشخيص الداء ومعرفة أسبابه هو الطريق السليم لوصف العلاج الناجع، والدواء الشافي.

- السبب الحقيقي للهزيمة:

وإذا لم يكن الغلط العسكري ولا الخيانة ولا التخلف ولا الدين أسبابًا للهزيمة النكراء فيا ترى ما سببها؟ أم تراها وقعت اعتباطًا بلا سبب؟

أما نحن فنؤمن بقانون السببية ومبدأ العلية في الكون كله. فلا يحدث فيه حدث صغر أو كبر إلا بسبب، فكيف بحدث ضخم كنكبة 1967؟

وأما ما هو السبب الذي أنتج هذه الكارثة؟

فالحقيقة أنها أسباب عدة، كلها فروع لسبب واحد أصيل عميق. هو أن هذه الأمة نسبت نفسها، وفقدت شخصيتها. وذلك حين نسيت الله، وفقدت منهجه وهداه.

إن للأمة روحًا كما للفرد. الفرد بغير روح يكون مجرد شبح وجثة لا حركة فيها ولا حياة. وكذلك الأمة إذا فقدت روحها. تصبح هيكلًا قد يعجب الناظرين، ولكنه فارغ من كل معاني القوة والحياة والإبداع.

وإن لكل أمة روحًا به تحيا وبه تتحرك، وبه تكافح. وروح أمتنا هو الإيمان. هو الإسلام. فإذا انطفأت جذوة هذا الروح أو ضعفت، فقد تحولت

الأمة من حركة إلى همود، من نار إلى رماد.

إن السبب الحقيقي لنكبة 1967 هو نفس السبب لنكبة 1948، وهو السبب الذي أضاع الأندلس إلى اليوم، وأضاع فلسطين ما يقرب من قرنين في أيدي الصليبيين.

إنه التخلي عن الإسلام وتعاليم الإسلام. وأنا أعني «الإسلام الصحيح» بعقائده وعباداته وشرائعه وأنظمته وأخلاقه وآدابه ومفاهيمه وأفكاره، وعواطفه ومشاعره. فالإسلام كل لا يتجزأ.

(أ) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام فقدان روح التضحية وحب الاستشهاد في نفوس أبنائنا وجنودنا، مما أضعف روحنا المعنوية أمام أعدائنا. وهذا هو «الوهن» الذي حذرنا منه رسولنا صلى الله عليه وسلم حين قال: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها». قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله.؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت».

وهذا هو الوهن الحقيقي الذي لا يعالجه كثرة السلاح، ولا براعة التدريب، ولا قوة التنظيم ولا مهارة القيادة في التخطيط والتكتيك.

(ب) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال العرب عن إخوانهم المسلمين الذين يبلغ عددهم نحو 600 مليون مسلم في أنحاء المعمورة. لأن تبنينا للقومية العلمانية وإيماننا بها تقليدًا للغرب الذي آمن بها بالأمس، وبات

يكفر بها اليوم، جرنا إلى مجافاة الأمة الإسلامية الكبيرة، وعدم الاعتراف بها، لأن كل تجمع أو حتى تضامن أو تقارب على أساس العقيدة والدين مظهر من مظاهر التخلف والرجعية يجب أن نبرأ منه حتى نكون عصريين تقدميين!

ومثل ذلك انفصال بعض الحكومات التي تنتسب إلى الإسلام عن إخوانهم العرب، حين تبنوا هم كذلك مبدأ القومية العلمانية، فوجدنا بعض هذه الحكومات القومية يعترف بإسرائيل أو يتعامل معها بصورة من الصور، أو يقف من مأساة فلسطين موقفًا سلبيًا كأن الأمر لا يعنيه ... وكان المفروض أن تهب الأمة الإسلامية عن بكرة أبيها من المحيط إلى المحيط، لتذود عن أرض الإسلام، وشرف الإسلام، ولكن كيف توجد الأمة الإسلامية وقد فرقتها العصبيات القومية والإقليمية، والمناهج والأنظمة الأرضية والوضعية، والمؤامرات اليهودية والاستعمارية والأنانيات الحزبية والشخصية؟!

(جـ) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال العرب أنفسهم بعضهم عن بعض، فإنهم حين اتخذوا غير دين الله منهجًا وطريقًا، وغير كتابه إمامًا ودليلًا، وغير رسوله قائدًا وهاديًا، تفرقت بهم المناهج، واختلفت عليهم السبل، وتشتتوا بين مختلف المذاهب والأفكار.

فهذا ينتمي إلى اليمين، وذاك ينتمي إلى اليسار. وبين اليمين واليسار منازع من يمين اليمين إلى يسار اليسار.

واليمين نفسه ألوان وضروب لكل منها قبلته، من واشنطن إلى لندن إلى باريس، واليسار ألوان: أحمر وأصفر، وبينهما بعد ما بين موسكو وبكين.

وهكذا تفرق العرب شيعًا وأحزابًا، ودولًا أو دويلات، صنفها المصنفون إلى ثوريين ومحافظين وإلى تقدميين ورجعيين.

ولم يكن في الإمكان أن تجمعهم فكرة واحدة، أو تضمهم راية واحدة، لأن الفكرة الفذة التي يمكن أن تجمعهم، والراية الوحيدة التي يمكن أن تضمهم هي فكرة الإسلام، وراية القرآن، وقد تخلوا عنهما فكانوا طرائق قددًا.

وهذا ما حذر منه القرآن حيث قال الله سبحانه: **{وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ}** [الأنعام: 153].

فلما جد الجد، وتلبدت السماء بالغيوم كان العرب حديثًا أشبه بما كان عليه اليهود قديمًا: **{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ}** [الحشر: 14].

(د) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال الحكام عن الشعوب في البلاد العربية. فقد أصبح الحكام في واد والشعوب العربية المسلمة في واد، فالحكام يؤمنون بمذاهب وضعية، وفلسفات علمانية، ويحكمون بقوانين أجنبية عن شريعة الله وهي شريعة الأمة. أما جماهير الشعوب فلا زالت مؤمنة بربها ودينها وقرآنها ومحمدها. وترى أن كل خير في إتباع هدي الله والعمل بشريعة الله، وأن كل شر وخسران في الانحراف عن صراط الله، وعن هدي رسول الله.

والحكام مشغولون بتوطيد سلطانهم، وتثبيت كراسي حكمهم، باضطهاد كل فرد أو جماعة أو حركة تعارضهم، أو تحاسبهم، أو تقول لهم: لم؟ وكيف؟ فضلًا عن أن تقول: لا، ومن تجرأ وقال: «لا» فمآله السجن أو النفي أو حبل المشنقة. والشعوب مشغولة بهم لقمة العيش، وطلب الحرية والأمن، فإن

الأنظمة التي تحكمهم لم تطعمهم من جوع، ولم تؤمنهم من خوف.

فلما سمعت جماهير هذه الشعوب أن هؤلاء الحكام سيحاربون لم تصدق عقولهم ما سمعته آذانهم، فقد عرفوا بفطرتهم وتجربتهم أن هؤلاء الحكام لا يعنيهم حرب اليهود بقدر ما يعنيهم بقدر ما يعنيهم القضاء على المعارضين للحكم. ولما بدأ اليهود بالضرب، وتورط هؤلاء في الحرب، كانت ضمائر هذه الشعوب في حيرة وألسنتها تتلعثم في الدعاء لهم بالنصر والتمكين. فقد ذاقت على أيديهم من المظالم ما جعلها تخاف من انتصارهم مثل ما تكره من هزيمتهم. ولقد قال وكيل الأزهر في مؤتمر علماء المسلمين الذي انعقد في رجب الماضي (1388هـ) في كلمته نيابة عن «الأزهر»:

«إننا لو انتصرنا - على ما كان بنا من عيوب وانحراف - لازددنا جرأة على محارم الله».

وهذا هو الشعور الذي كان يسود جماهيرنا المسلمة، قبيل وأثناء الحرب. وكفى بهذه الحال تعبيرًا عن الفجوة الفسيحة والهوة العميقة التي حفرها هؤلاء الحكام بينهم وبين جماهير شعوبهم. وصدق الشاعر:

كفى بك داء أن ترى الموت وحسب المنايا أن يكن أمانيا!!

(هـ) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انفصال الشعب نفسه بعضه عن بعض، فلقد آثار هؤلاء الحكام بمبادئهم المستوردة فئات الشعب بعضها على بعض، وشككوا المواطنين في كل بلد بعضهم في بعض. وأصبح الناس في البلد الواحد، بل في الأسرة الواحدة، يخاصم بعضهم بعضًا، ويخاف بعضهم بعضًا، ويكره بعضهم بعضًا. بعد أن كانوا من قبل - بفضل الإيمان - كالبنيان

المرصوص، أو كالجسد الواحد، في تعاطفهم وتوادهم وتراحمهم، وبعد أن كانت الأخوة هي شعارهم والراية التي تجمعهم: {**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**} [الحجرات: 10].

ولقد بات الأب في واد وأبناؤه في واد: انفصال نفسي وفكري بين الجيلين. لبعد المسافة بين القديم والجديد، بين المحافظة والتحرر. وبات الأخوة الأشقاء أولاد الأب الواحد والأم الواحدة، وكأنهم أجانب بعضهم عن بعض، فرقت بينهم الأفكار والمبادئ والمذاهب التي أصبح كل واحد منها «دينًا» بتعبد له، ويعتز به.

(و) وكان من نتائج التخلي عن الإسلام انطلاق الغرائز الدنيا، وطغيان الشهوات البهيمية وانتشار المجون والفسق، والتحلل من عقدة الفضائل والمثل العليا، فالعفاف والإحصان والاحتشام والحياء من أخلاق الرجعية المتزمتة، وخصائص المجتمعات المتخلفة التي لم تر نور القرن العشرين.

أما اللهو والخلاعة والصور العارية أو شبه العارية والقصص الخليعة، والأدب المكشوف والغناء الفاحش، والأزياء المثيرة فهذه هي سمات الحضارة، وعنوان التمدن، وشارة التحرر من ربقة التقاليد العتيقة البالية.

فلا تعجب إذا وزعت - قبل المعركة بأيام - عشرات الآلاف من صور المطربات والممثلات على الجنود المرابطين في خط النار، تشجيعًا لهم، وتقوية لروحهم!!

(ز) وأخيرًا كان من نتائج تخلينا عن الإسلام: أننا دخلنا المعركة بمعزل عن الله، شاعرين بالاستغناء عنه، ذاكرين كل اسم إلا اسمه، منتظرين كل

عون إلا عونه، مترقبين أي مدد من أي جهة إلا مددًا يأتي من عنده.

كانت الإذاعات العربية تشجع الجنود والضباط قائلة: قاتلوا باسم فلان واسم علان.

كانت بعض الإذاعات تلهب حماس المحاربين في ساعات القتال الرهيبة بمثل هذه الكلمات: قاتلوا واضربوا واسحقوا العدو. إن الفنانين والفنانات من ورائكم ... إن فلانة المطربة معكم والأخرى الممثلة بجانبكم!!

أما الله وملائكته وتأييده فلم يكن في الحساب.

دخلنا المعركة والغرور حشو رؤوسنا، والرياء ملء نفوسنا، والكبر ملء أنوفنا، لم ندخلها في تواضع المؤمنين، وزهد المخلصين، وصدق التائبين، وتوبة الصادقين.

لم يقل قائد لزملائه أو لجنوده يوم الحرب ما قاله خالد يوم «اليرموك»: إن هذا اليوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، فأخلصوا لله جهادكم، وتوجهوا لله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده.

وهكذا خضنا الحرب بلا عقيدة، وقاتلنا بلا إيمان ... خضناها متوكلين على الروس، فخذلنا الروس، معتمدين على السلاح فلم ينفعنا السلاح.

لقد وضع القرآن للمؤمنين شروط النصر عند اللقاء فقال: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ 45 وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ 46 وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ}** [الأنفال: 45 - 47].

فهل راعينا هذه الشروط الستة ونفذناها؟ بل هل وعيناها وحفظناها؟ بل هل خطرت لقادتنا على بال؟ كلا ثم كلا.

لا عجب إذن - وقد تخلينا هكذا عن الإسلام - أن يحجب الله نصره عنا، وأن يسلط علينا عدوه وعدونا. فإنه لم يعد بالنصر إلا من نصره وأعز دينه: **{وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ 40 ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ}** [الحج: 40 - 41].

هذا هو في نظري السبب الحقيقي للهزيمة، وهو سبب أعمق جذورًا، وأبعد مدى وأطول عمرًا من حرب «حزيران»، فإن ساعة الحرب هي ساعة الحصاد لما زرع في أيام السلم.

فليت شعري لماذا يقحم فريق من الناس اسم الدين واسم الله بعد الهزيمة؟ وعندما كانوا يظنون النصر قريبًا لم يجر ذكر الله على ألسنتهم ولم يخطر على قلوبهم. وإنما ذكروا «هبلهم» و«مناتهم» و«عزاهم» وسائر آلهتهم التي يلتمسون عندها المدد والعون.

أجل ... لقد كانوا ينتظرون المعونة من أي جانب إلا من الله، ويتطلعون إلى كل جهة إلا إلى السماء، فلا غرو أن وكلهم الله إلى أنفسهم وآلهتهم التي يدعون من دون الله.

وتالله لو انتصروا - وهيهات - ما جعلوا لله ولا لدينه فضلًا في ذلك، ولكان فضل النصر حينئذ للأسلحة الروسية، والمساعدات الروسية، وبراعة القيادة الثورية، ولكنهم - وقد انهزموا - يريدون أن يحملوا أوزار هزيمتهم

على كاهل الدين المفترى عليه.

كان من الأسئلة التي سمعناها بعد النكبة - يطرحها الملحدون على أهل الإيمان - هذا السؤال: أين الله؟! ولماذا تخلى عنا وكان مع اليهود؟ ألم يعد المؤمنين بالنصر فأين النصر؟ وهو سؤال غريب من قوم لم يكن الله لهم يومًا على بال. إنما أرادوا - بمكرهم - أن يأخذوا زمام المبادرة ويسألوا المؤمنين: أين معونة الله؟ قبل أن تسألهم الجماهير المؤمنة: أين عون آلهتكم في موسكو وأين نجدتهم عند الشدة؟

إن الله موجود أيها الشيوعيون - وهو الذي خذلكم - ومكن اليهود منكم لأنهم أقرب إلى رعاية سنن الله منكم، قال عمر لقائده: إنما ننتصر بمعصية عدونا لله وطاعتنا له. فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة.

الله موجود يا عباد «ماركس» و«لينين»، ولكنه - سبحانه - لا ينصر إلا من نصره، أي نصر دينه، وأقام حدوده، ونفذ أحكامه، هل عرفتم الله حتى يعرفكم؟ وهل حفظتموه حتى يحفظكم؟ وهل نصرتموه حتى ينصركم؟

إن نصره - جل شأنه - مشروط بالإيمان. فهل وفيتم بالشرط حتى يفي لكم بالوعد؟ هل حققتم شروط الإيمان، وتحليتم بأخلاق المؤمنين؟ هل كنتم من: **{ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}** [الأنفال: 2] هل كنتم من: **{ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ}** [الحجرات: 15]؟ هل كنتم من الذين قال الله فيهم: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن**

يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ} [النور: 51]؟.

ولا أحسبكم تجادلون أنكم على شيء من هذه الخصال فضلًا عن أن تتمتعوا بها كلها كما هو شأن المؤمنين الصادقين.

- أعطني إسلامًا أعطك نصرًا:

لقد زرت تركيا في صيف 1967 بعد النكبة الثانية فكانوا في استياء شديد لما حل بالعرب، وقالوا لي: كيف ينهزم الإسلام أمام اليهودية؟

فلقت لهم: إن الإسلام لم ينهزم وما انهزم قط، والإسلام لم يدخل هذه المعركة أبدًا. إنما الذي يحمل عارها هو الثورية العربية التي جرت العرب جميعًا إلى هذه الحرب ظانة أنها لن تتعدى الصياح والتهديد وعرض العضلات؟

ولى رأى قلته في أكثر من مناسبة: إن الحرب طوال السنين العشرين الماضية كانت بين العرب واليهود ولم تكن بين المسلمين واليهود.

فالعرب يخوضون الحرب بوصفهم: «عربًا» لا بوصفهم «مسلمين»، ويوم يخوض العرب المعركة «مسلمين» كما كان خالد وأبو عبيدة وسعد، سيتحول سير الأحداث ويتغير اتجاه التاريخ.

كيف ننتصر؟

بقى علينا - وقد عرفنا علة الهزيمة وأسبابها العميقة - أن نعرف كيف نمحو عارها ونحقق أمل النصر؟

- تحديد الهدف أولًا:

وقبل أن نبحث عن طريق النصر يجب علينا أن نتبين الهدف الذي نريده ونحرص على تحقيقه مهما يكلفنا من تضحيات. فإن وضوح الهدف وتحديده شرط ضروري لمعرفة الطريق الموصلة إليه، والوسائل المعينة على تحقيقه.

لقد رأينا بعد النكبة الثانية شعارًا يرفعه بعض الناس وهو «إزالة آثار العدوان»، وركزت الأجهزة الدعائية على هذا الشعار، حتى أصبح وكأنه الهدف المنشود، والأمل الموعود.

فهل هذا هدفنا في قضية فلسطين، وهل هذا هو ختام المطاف في مأساة الوطن السليب، أن تتراجع إسرائيل إلى حدودها قبل الخامس من «حزيران» إن تكرمت بالرضا والقبول؟

هذا ما يتبناه الواقعيون، ويدعون إليه همسًا إن لم يجدوا الشجاعة ليعلنوه جهرًا.

إن إزالة آثار العدوان واجب، وتحرير القناة والقنطرة والسويس وسيناء وغزة والضفة الغربية والجولان واجب، ولكنه ليس هو الهدف. الهدف أبعد من ذلك وأكبر. والتركيز على إزالة آثار العدوان - فقط - معناه نسيان العدوان القديم بالعدوان الجديد. أي أن كل عدوان تكسب من ورائه إسرائيل

أرضًا أو وضعًا، يضفي الشرعية على ما كسبته من عدوانها السابق أو الأسبق، وتحول كل الجهود إلى تصفية آثار العدوان الجديد. وهذا أعظم كسب لإسرائيل.

لقد رفض العرب قرار تقسيم فلسطين، ثم ضمنت إسرائيل بالقوة إليها أرضًا أكثر مما أعطاه لها قرار التقسيم. فعاد بعضنا يطالب أن تتراجع إسرائيل إلى الحدود التي تضمنها التقسيم، حسب قرار الأمم المتحدة.

ثم كسبت إسرائيل في عدوان سنة 1956 حرية المرور في مياه العقبة، فقام من ينادى بأن تنسحب إسرائيل إلى ما قبل حرب 1956 وتتخلى عن مكاسبها تلك.

ثم كانت نكبة الخامس من «حزيران»، فعادوا يطالبون بانسحاب إسرائيل إلى ما قبل 5 «حزيران». وهكذا كل يوم نخسر وتكسب إسرائيل، ونعترف نحن ضمنيًا - بهذا الكسب القائم على الإثم والعدوان.

أما نحن فنرى أن إسرائيل بناء لبناته من العدوان، وأساسه من العدوان، وأعمدته وسقوفه من العدوان، والعدوان كله لابد أن يهدم ويزول. ولا حق له في البقاء والاستمرار ولو كره المجرمون.

أم يكون هدفنا هو إعادة اللاجئين الذين شردوا من ديارهم بغير حق أو توطينهم وتعويضهم بما يناسب خسارتهم؟

أما توطين اللاجئين في أي مكان في مقابل تعويضهم عن وطنهم بمقدار من المال يقل أو يكثر، فهو خيانة كبرى للوطن ولأمة وللدين. فوطن المسلم لا يباع ولا يعوض بالمال وإن كان ملء الأرض ذهبًا. والوطن ليس ملكًا

لجيل من الأجيال حتى يقبل هذا الجيل المساومة عليه، والمعاوضة عنه، وهو ليس ملك السكان وحدهم حتى يفرطوا فيه لو أرادوا، إنما هو ملك الأمة الإسلامية كلها، وملك الأجيال الإسلامية جميعًا. ولو افترضنا جدلًا أن أبناء فلسطين فرطوا في وطنهم وقبلوا أن يعوضوا عنه بالدولار أو الإسترليني لكان من واجب المسلمين كافة أن يقولوا لهم: كفوا أيديكم فليس هذا من حقكم ... أن تفرطوا في أرض روتها دماء الصحابة والتابعين وضم تراثها رفات الألوف من الشهداء، منذ عهد عمر وصلاح الدين إلى يومنا هذا.

أما إعادة اللاجئين إلى ديارهم، ورد أملاكهم وأرضهم وبيوتهم وبياراتهم وكرومهم إليهم، فهو أمر واجب، ولكن تحت أي سلطان يعودون؟ أيعودون تحت حكم إسرائيل وعلم إسرائيل؟

إن إسرائيل إن قبلت هذا ورضيته صادقة، فإننا لا نقبله ولا نرضاه، فكيف يجتمع اللص وصاحب البيت تحت سقف واحد؟

إن عودة صاحب الدار إلى داره يقتضي أولًا أن يطرد منها اللصوص وقطاع الطريق ومعنى هذا هو قبل كل شيء طرد إسرائيل.

ليس هدفنا مجرد إزالة آثار العدوان ولا توطين اللاجئين أو إعادة اللاجئين، أفهل ترى يكون هدفنا إقلاق أمن إسرائيل؟

لا ريب أن إقلاق أمن إسرائيل، والعمل على تخريب مرافقها، وإشعارها بالخوف والخطر، كل ذلك أمر واجب، وما تقوم به المنظمات الفدائية في هذا السبيل هو جهد مشكور وجهاد مبرور، متى ابتغى به وجه الله عز وجل.

ولكن ليس هذا هو الهدف، إننا نريد شيئًا بعد ذلك وفوق ذلك. نريد ما هو

أكبر وأعمق وأخطر من ضرب المنشآت، وقتل الدوريات وتهديد طرق المواصلات.

نريد محو العدوان من جذوره، العدوان الذي قام على القوة الغاشمة والاغتصاب الظالم الأثيم. نريد محو إسرائيل، وإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الهجرات اليهودية الجماعية إلى فلسطين.

هذا هو هدفنا الذي لا نعدل عنه ولا نفرط فيه، ولا نساوم عليه، ولا نستخفي به، ولا نتخلى عن الإيمان به والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، ولو تمالأت علينا الدنيا كلها، وخذلتنا معسكرات الشرق والغرب، وخانتنا حكومات اليمن واليسار.

● دعاة الواقعية المنهزمة:

يقول بعض الناس: إن محو إسرائيل حلم بعيد المنال. فلنكن واقعيين ولنعترف بما هو كائن، ولنطلب التعايش السلمي مع إسرائيل. وخاصة أن إسرائيل ليست وحدها. فإن وراءها قوى عالمية تحركها الصهيونية بنفوذها ودولاراتها ولازالت تعلن هذه القوى: إن إسرائيل خلقت لتبقى.

ونقول: إن هذه «الواقعية» هي بداية الهزيمة. بل هي الهزيمة عينها. وليس أقر لعين الباطل من أن نعترف بوجوده، ونتعامل وإياه على أساس الواقع.

وأول طريق النصر أن تقتل العدو في نفسك، وأن تسقطه من قلبك، نحن نقر بأن هدفنا بعيد وبعيد إذا ظللنا على ما نحن عليه، وإسرائيل عندئذ ستبقى وتبقى.

ولكن هدفنا سيتحقق إذا نحن آمنا به، ورسمنا له الطريق القويم. ولن يكون زوال إسرائيل أعظم من زوال الصليبيين، وقد وطدوا أقدامهم في فلسطين حوالي قرنين من الزمان، وسقط بيت المقدس في أيديهم 92 عامًا. وظن الناس بالله الظنون، وخيل إليهم أن علم الإسلام قد طوى من تلك الأرض المقدسة إلى الأبد.

وما هو إلا أن ظهر القائد الذي جمع الشتات، وأحيا الموات، وجدد الإيمان في القلوب، فاستيقظ الأمل في الصدور، وانجابت غشاوة اليأس عن الأنفس فكانت «حطين». وكان فتح القدس على يدي السلطان التقى العادل صلاح الدين.

يقول ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» عند ذكر يوم حطين: «إنه لم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفًا وثلاثين أسيرًا من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة «حبل» ... وباع بعضهم أسيرًا بنعل ليلبسها في رجله ... وجرت أمور لم يسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين».

وليت شعري أيها السادة الواقعيون ... أيهما أبعد عن التحقق وأغرق في الخيال؟ إزالة إسرائيل وهي جزيرة صغيرة في بحر من الكراهية والمقاومة العربية والإسلامية أم إقامتها منذ أكثر من سبعين عامًا ولم يكن فيها إلا بضعة آلاف من اليهود يعدون أقلية ضئيلة لا وزن لها ولا اعتبار؟

لا شك أن إزالتها الآن أقرب من حلم إقامتها يوم انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في «بال» سنة 1897 برياسة «هرتزل» الذي عاد من المؤتمر يقول

بكل ثقة وغرور: «لو طلب إلي تلخيص أعمال المؤتمر فإني أقول ... بل أنادي على مسمع من الجميع ... إنني قد أسست الدولة اليهودية. وقد يثير هذا القول عاصفة من الضحك هنا وهناك ولكن العالم سيشهد بعد خمسين عامًا قيام الدولة اليهودية حسبما يمليه إيمان اليهود بأن تنشأ لهم دولة ...».

ومن العجائب أنه بعد خمسين عامًا بالفعل، وعلى وجه التحديد في 29 نوفمبر سنة 1947 أعلنت الأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين وقيام إسرائيل.

وبعد سبعين عامًا تحقق الحلم الذي اتخذه اليهود شعارًا من قديم «العام القادم في أورشليم» ودخلوا أورشليم ودنسوا بيت المقدس، حرم المسلمين مسرى النبي الكريم.

- هذا هو الهدف فما الطريق؟

إذا عرفنا الهدف وحددناه، وهو إزالة الجرثومية الإسرائيلية من جسم العروبة والإسلام ... فما الطريق إلى هذا الهدف؟

1 - المحافل الدولية:

يرى فريق من الناس أن الطريق هو الاعتماد على الضمير العالمي ... على المحافل الدولية، على العمل الديبلوماسي في ردهات الأمم المتحدة ... فقد جربنا الجيوش واستعمال القوة في حربين كبيرتين، فلم نجن في كل مرة إلا الصاب والعلقم فلم يبق إلا الحل السلمي، الحل السياسي، ودعونا من التهور والمخاطرات الانتحارية.

ولا أدري نسى هؤلاء أو تناسوا موقف هذه المحافل الدولية منا، أكثر من عشرين عامًا، ونحن نخطب في ردهاتها، ونتصل بمندوبيها، ونقدم إلى

مؤسساتها الشكوى تلو الشكوى، ما بين شديدة اللهجة ومعتدلة وخفيفة - حسب خطورة العدوان الواقع علينا ومقداره - فهل أنصفتنا هذه المحافل؟ وهل وقفت بجانبنا؟ وإذا وقفت مرة بجانبنا فهل خطت خطوة تنفيذية؟ كلا، لقد كنا معها مثل عباد الأصنام مع آلهتهم، الذين وصفهم القرآن فأبلغ الوصف: {**إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ**} [فاطر: 14].

إن الذهب اليهودي والنفوذ يلعب في هذه المحافل دورًا خطيرًا، فالذمم والأصوات تشترى وتباع في سوق المساومات الدولية، وبريق الدولارات والمعونات العلنية والخفية، والتهديد بكشف فضائح الحكام واتفاقاتهم وأسرارهم، كل ذلك يعمل عمله في إخضاع الرقاب، وكسب المؤيدين.

والذي يطلع على المناصب الكبرى في هيئة الأمم المتحدة ومنظماتها سيكتشف أن الإخطبوط اليهودي الصهيوني يسيطر عليها ويوجهها خفية وجهارًا.

ولنراجع - على سبيل المثال - كتاب أسرار الماسونية للجنرال التركي «رفعت أتلخان» من «ص43 إلى ص50». وكتاب «خطر اليهودية العالمية» للقائد العربي عبد الله التل، الفصل الثالث عشر.

2 - الاعتماد على أحد المعسكرين:

ويقول فريق آخر: إن الطريق السليم هو الاعتماد على أحد المعسكرين الدوليين المتنازعين والاستفادة من هذا التنازع في استرداد حقنا.

وقد أثبت الواقع أن الاعتماد المطلق على ذلك خرافة كبيرة.

فأما المعسكر الغربي، فلا جدال في أنه الذي خلق إسرائيل، وأمدها بأسباب الحياة والبقاء بعد خلقها، ولا فائدة ترتجي منه.

وأما المعسكر الشرقي، فصلته بالصهيونية، منذ قامت الثورة البلشفية في سنة 1918 لا تخفى على دارس.

ودوره في خلق إسرائيل وإبقائها ونضاله في المعترك الدولي من أجلها لا يخفى أيضًا على أحد ممن لم يفقدوا ذاكرتهم»[12].

ومهما يكن من خلاف بين المعسكرين فقد أعلن قادتهما: أن إسرائيل إنما خلقت لتبقى.

إن المعسكر الشيوعي - وأعني بالذات الاتحاد السوفييتي - يقف مع العرب إلى مدى محدود مثل إدانة الاعتداء الإسرائيلي الأخير. وقد يساعد بأسلحته وخبراته بعض الدول العربية الموالية له في زحزحة إسرائيل عن المناطق التي احتلتها أخيرًا كالشاطئ، الشرقي لقناة السويس وسيناء مثلًا، لكسب نفوذ له ولدعوته ومذهبه وعملائه في داخل بلادنا.

ولكن لن يخطو معنا أكثر من هذا. لن يؤيدنا في هدفنا الأصيل وهو تحرير فلسطين العربية المسلمة، والذي ليس له معنى إلا محو دولة إسرائيل من الشرق العربي.

ومهما يكن الموقف السياسي للاتحاد السوفييتي ودول أوروبا الشيوعية من الاعتداءات الإسرائيلية على العرب، فإن النظرة العقائدية الشيوعية إلى

---

(12) انظر: كتاب «موسكو وإسرائيل» وهو دراسة مؤيدة بالوثائق لدور موسكو في خلق إسرائيل وإبقائها. تأليف الدكتور «عمر حليق».

إسرائيل، «كبلد رسخت فيه قواعد النظام الاشتراكي السليم» معروفة من قديم، ولم تتغير.

ويمكننا معرفة هذه النظرة من خلال رأي الأحزاب الشيوعية في مشكلة فلسطين المحتلة، وهو رأي طالما رددته هذه الأحزاب ولا زالت ترددده صحفها في أوروبا.

وفي سنة 1966 نشرت مجلة «رينا شيتا» - أي البحث - وهي اللسان العقائدي للحزب الشيوعي الإيطالي بحثًا موضوعه: «الحل الاشتراكي لمشكلة فلسطين» وقد نشرت صحيفة «الحياة» البيروتية خلاصته في 28 يناير سنة 1966 جاء فيها:

«وفي ذلك البحث حذرت المجلة الاشتراكيين العرب من القيام بأي عمل عسكري ضد إسرائيل» التي وصفتها بأنها بلد «توافرت فيه جميع قواعد النظام الاشتراكي السليم».

وقالت المجلة: «إن إسرائيل تتودد إلى الغرب اضطرارًا لتحمى نفسها به من العالم العربي إذا لم يتحول إلى مجتمع اشتراكي ثوري، وخشية أن تبقي فيه عصبيات قومية أو دينية تهددها».

وقالت المجلة: «إن هذه العصبيات القومية والدينية هي سبب الخصومة بين العرب وإسرائيل».

«فإذا تم تحويل العالم العربي إلى مجتمع ثوري، زالت حاجة إسرائيل إلى الغرب والتقت مع العرب على الاشتراكية».

وجدير بالذكر أن التحذير الشيوعي للعرب من: «القيام بأي عمل عسكري

ضد إسرائيل في أوائل 1966» قد تكرر على لسان السفير السوفياتي في القاهرة قبل ساعات من وقوع العدوان الإسرائيلي العنيف على العرب في 5 «حزيران» 1967».

هذا هو منطق الشيوعيين وموقفهم الفكري من هذه القضية: إن حلها يكمن في انتصار الماركسية الشيوعية على المنطقة كلها. فإن الذي يؤجج النزاع بين العرب واليهود ليس هو عدوان اليهود على فلسطين وطنًا وشعبًا، بل هو وجود الرجعية والبرجوازية في الفريقين. فإذا زال الرجعيون من الطرفين، وانتصرت طبقة «البروليتاريا» أمكن أن تقوم حينئذ أخوة اشتراكية بين العمال العرب والعمال اليهود، بعد أن ذهب الشيطان الذي يفرق بينهم!

وليس هذا المنطق وليد اليوم ولا الأمس. بل هو منطق قديم راسخ في عقلية الماركسيين، مهما يحاولوا أن يخفوه في بعض الأحيان، تبعًا لتقلبات السياسة السوفييتية في المنطقة العربية، ولنعد بذاكرتنا قليلًا إلى الوراء:

«في سنة 1926 ظهر أول شيوعي عربي في فلسطين. إنه لم يذهب إلى موسكو ليتعلم الشيوعية هناك. بل علمه الصهيونيون الذين جاءوا من موسكو لنشرها في الشرق الأوسط. وقف هذا الشيوعي يخطب في جمع من العرب يقول:

«أيها الرفاق: أنتم أخوة مع اليهود فلا تقاوموا هجرتهم واستيطانهم. يا عمال العالم اتحدوا. يجب أن نتحد مع اليهود القادمين وننشئ جمهورية شعبية وأن نحارب الاستعمار ... إن الزعماء الوطنيين الذين يطلبون منكم محاربة الاستعمار والصهيونية ومقاومة الهجرة اليهودية هم رجعيون مخادعون.

لتسقط الرجعية. لا تحاربوا الكادحين اليهود بل حاربوا الرأسماليين العرب».

هذه هي أقوال أول خطيب شيوعي عربي وكان اسمه «عثمان أبو طبيخ»، وقد سافر بعد ذلك إلى موسكو وغير اسمه واحتل منصبًا رفيعًا لأنه خدم الصهيونية بإخلاص.

كان الشيوعيون في فلسطين يزعمون أنهم يحاربون الاستعمار ولكنهم في الواقع لم يفعلوا شيئًا ضد الاستعمار، بل كانوا يحاربون الحركة الوطنية العربية، ولقد كان الاستعمار حليفًا لهم، يقدم لهم الضحايا. وكان إذا اعتقل الاستعمار أحد الشيوعيين أنزله سجنًا تتوفر فيه جميع شروط الراحة، أما إذا وقع بين يديه وطني عربي أطلق عليه الرصاص.

وعندما كان العرب يقومون بثورة ضد الاستعمار كان الشيوعيون لا يشتركون فيها، بل يهربون إلى تل أبيب ويعلنون أن هذه الثورة لا تخدم المصالح الشيوعية.

ولما قام العرب بثورتهم الكبرى في سنة 1936 حاربها الشيوعيون وكانوا يوزعون المنشورات كل يوم ضد الثورة العربية.

ولعل الرأي العام لا يعرف أن الشيوعيين من اليهود والعرب قد ألفوا منظمة إرهابية خاصة بهم هي: منظمة «اشتيرن» المعروفة. وأن جميع أعضائها كانوا من الشيوعيين الذين حاربوا في صفوف الصهاينة ضد العرب.

وأن معظم رجال «الهاجاناه» و«البالماخ» من أعضاء حزب «المابام» الشيوعي وأن «إيجال آلون» الذي كان يحاصر القوات المصرية في الفالوجا

شيوعي صهيوني، وأن زميله «إسحق ساديه» قائد «البالماخ» من أقطاب الفكرة الشيوعية ومفكريها الأفذاذ، وأن كتاباته عن المذهب الشيوعي لا تقل أهمية عن كتب «لينين» في نظر الشيوعيين اليهود.

وعندما جاءت الحرب العالمية الثانية واتفقت بريطانيا مع روسيا بادر زعيم الشيوعيين العرب في فلسطين إلى مكتب الحاكم الإداري البريطاني وصافحه وقال: نحن حلفاء.

ولما نظرت هيئة الأمم المتحدة في قضية فلسطين وقف وزير خارجية روسيا يعلن أن حكومته يسرها الموافقة على التقسيم، ويسرها أن تشترك في تحقيق أحلام القومية اليهودية.

وأصدر الحزب الشيوعي الفلسطيني بيانًا أعلن فيه أنه يرحب بالتقسيم، وبإنشاء دولة يهودية. بعد أن كان هذا الحزب يدعو للاتحاد العربي اليهودي وافق - إطاعة لأوامر موسكو - على انفصال اليهود بدولتهم.

ولما أعلن العرب رفضهم للتقسيم سافر أقطاب الشيوعيين من فلسطين إلى موسكو يطلبون العون لمحاربة «القومية العربية» فأرسلتهم موسكو إلى تشيكوسلوفاكيا حيث شحنوا من هناك عدة بواخر مليئة بالأسلحة، وأرسلوا عديدًا من الطائرات الضخمة المشحونة بالأسلحة. وفي سنة 1942 بلغ عدد الذين هاجروا من اليهود إلى فلسطين ....ر 235 جاءوا جميعًا من أوروبا الشرقية، وفي السنة التالية دخل البلاد .... ر185 نسمة كلهم من أوروبا الشرقية»[13].

---

(13) كتاب «إسرائيل وكر الاستعمار» تأليف محمد عطية واكد (ص25، 26).

والحقيقة أن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ليست علاقة سطحية ولا عرضية. إنها علاقة عميقة عريقة. ترجع في تاريخها إلى أواسط القرن التاسع عشر، عندما بدأت هجرة اليهود من روسيا تتدفق نحو الغرب.

«ويخطئ من يظن أن الفكرة الشيوعية قد ظهرت في روسيا، بل إنها في الواقع من وضع أولئك اليهود الذين رحلوا عن روسيا وراحوا يفكرون في غزو العالم والسيطرة عليه.

فقد وضع «كارل ماركس» اليهودي الفكرة الاشتراكية وراح أقطاب اليهود يفكرون في تنفيذها بما يتفق مع أغراضهم. ولما وضعوا خطوطها التنفيذية العملية وجدوا أنها تصلح للتنفيذ في روسيا وأنها في حاجة إلى تحوير وتبديل كي تصبح صالحة للمحيط الروسي وتبلورت الفكرة الشيوعية في بوتقة اليهود.

ولو اطلعنا وعلى الخطط السرية التي وضعها حكماء صهيون والتصريحات الصحيحة المؤكدة التي كان أقطاب اليهود يجاهرون بها لوجدنا أن الشيوعية من تدبيرهم. فهم يريدون نشر الإلحاد في العالم ويريدون صراعًا بين الطبقات يجمع السيطرة في أيدي نفر من الرجال الذين تستطيع اليهودية العالمية أن تدسهم وتقوى نفوذهم سواء أكانوا يهودًا أم غير يهود.

ولقد كان القاضي «براندیس» زعيم يهود أمريكا في القرن الماضي شيوعيًا. وكان «هارولد لاسكي» زعيم عمال بريطانيا شيوعيًا، وكان دزرائيلي، وليون بلدم، وروتشلد، وفرانكفورتر وغيرهم شيوعيين يعملون من أجل تحقيق الأغراض اليهودية المعروفة.

وتاريخ الثورة الشيوعية في أدوارها الأولى يبرهن على أنها كانت ثورة صهيونية يهودية، يسيطر عليها اليهود الذين كانوا يمثلون المناصب الكبرى مع «لينين».

ولم يكن من الضروري أبدًا أن يتظاهر اليهود بتسيير الشيوعية إذ أن ذلك يخلق جوًا من الريبة والجفاء نحوها، ولذلك فإن اليهود كانوا يسيرون الشيوعية سرًا فكانوا يزودونها بالمال سرًا وينفقون على «لينين» وزملائه سرًا ويحركونهم للعمل سرًا، ويضمون إليهم رجالًا من اليهود لا يكشف الواحد منهم عن يهوديته بل يزعم أنه دولي شيوعي، وهكذا كانت الشيوعية ستارًا يخفي وراءه المؤامرة الصهيونية التي ترمي إلى السيطرة على العالم عن طريق الإلحاد والفساد الاجتماعي والفوضى والصراع الطبقي»[14].

«وكانت الصهيونية تتظاهر طول الوقت بأنها على خصومة مع الشيوعية، مع أن هذه الخصومة ليست حقيقية أبدًا. فإن نسبة كبيرة من اليهود الذين نقلتهم الصهيونية إلى فلسطين كانوا شيوعيين، وكانت الصهيونية تعلم ذلك وتسمح للحزب الشيوعي أن يمارس نشاطه كما يريد، وكان المؤتمر الصهيوني العالمي يضم مندوبين عن الأحزاب والمنظمات الشيوعية. وكان الشيوعيون الذين نقلتهم الصهيونية إلى فلسطين هم الذين ينشرون المبادئ الشيوعية بين العرب، وكان كل عربي يميل إلى الشيوعية ينقل إلى المستعمرات الصهيونية لكي تغذيه بالمبادئ الشيوعية. إن هذه المبادئ كانت توضع باللغة العبرية، وكان لزامًا على كل من يصبح شيوعيًا أن يتعلم

(14) كتاب «إسرائيل وكر الاستعمار» (ص19، 20).

العبرية ليتلقن بها مبادئ الشيوعية»[15].

على أن العلاقة بين الشيوعية والصهيونية ليست علاقة تاريخية فحسب، بل هي علاقة فكرية أيضًا، فإن المبادئ الشيوعية الأساسية ومبادئ الصهيونية العالمية تتشابهان وتتفقان في وجهتهما وخطوطهما العريضة.

«إن الشيوعية تدعو إلى الإلحاد بين الناس، والصهيونية كذلك. والشيوعية تدعو إلى انحلال المجتمع، والصهيونية كذلك.

والشيوعية تدعو إلى نشر الفوضى والاضطراب، وكذلك الصهيونية»[16].

«والشيوعية تريد من الشعوب أن لا يحسوا بالقومية والوطنية، وكذلك الصهيونية.

والشيوعية تدعو للسيطرة على العالم، والصهيونية كذلك. والشيوعية تريد تحطيم الكيان العائلي والرباط الزوجي، والصهيونية كذلك.

إنهما تلتقيان في صعيد واحد في المآرب والأهداف الرئيسية وفي المبادئ الهدامة التي تريد أن تنشرها بين الناس وإن كانت كل واحدة منهما تسير في طريقها منفردة إلا أنهما ستلتقيان على أنقاض البشرية إذا تحقق لهما الانتصار»[17].

«لقد قالت الصهيونية في مبادئها الأساسية التي وضعت قبل ظهور

---

(15) المصدر نفسه (ص21).

(16) المصدر السابق (ص22).

(17) المصدر نفسه (ص22).

الشيوعية بنصف قرن على الأقل: إنه يجب نشر الفوضى والثورات بين الشعوب وإشعال نار الحروب بين الأمم كي يضعفوا، وإحداث الفتن الداخلية والصراع الطبقي.

أليست هذه الأشياء هي ما تفعله الشيوعية أيضًا؟

لقد قال حكماء صهيون إنه يجب هدم الأديان كلها وإثارة الريبة وزرع الشكوك في قلوب البشر نحو الوجود كله.

أليس هذا ما تقوله الشيوعية أيضًا؟ أليس هذا ما تفعله الصهيونية كذلك في أمريكا وأوروبا، وأليس معنى هذا أن الشيوعية والصهيونية تتعاونان على الوصول إلى الهدف؟

لقد نادى حكماء صهيون بالسيطرة على العالم ورسموا الخطوط العريضة لذلك، وطلبوا انتشار عملائهم في أنحاء العالم.

أليس هذا ما تفعله الشيوعية عندما ترسل عملاءها إلى قطر ليهدموه من الداخل ويهيئوه للانضمام إلى الدولية العالمية»[18].

«إن الصهيوني شيوعي في أعماق قلبه، وهو يبذر المال لنشر المبدأ الشيوعي في كل مكان، فالصهيوني لا يستطيع أن يصبح غنيًا ذا نفوذ وسيطرة إلا في الجو الذي تضيع فيه القيم الروحية وتنتشر الفوضى الاجتماعية. ومن مصلحة الصهيوني أن تنتشر المبادئ الشيوعية بين الجماهير التي يعيش بينها فتتصارع فيما بينها، بينما هو يسير في طريقه

(18) المصدر نفسه (ص22، 23).

ليجمع بين يديه المال والنفوذ والسادة»[19].

لقد أطلنا الحديث بعض الإطالة في توضيح موقف الشيوعية من قضيتنا ونظرتها الثابتة إليها وعلاقتها بالصهيونية من قديم، لنعرف من معنا ومن علينا. ونستبين إلى أي حد يؤيدنا المعسكر الشيوعي الحليف لبعض الدول العربية. وبهذا نقدر حقيقة قوتنا، ولا نبني قصورًا في الهواء، أو نسبح في غير ماء.

إن الاتكال على المعسكر الشيوعي، كالاعتماد على الهيئات الدولية، كلاهما لن يحرر فلسطين، ولن يرد الوطن السليب إلى أهله. ونحن معهما: **{كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ}** [الرعد: 14].

3 - التعبد للعلم والمال:

وقال فريق ثالث من العرب: إن سبيل النصر ليس الاعتماد على شرق ولا غرب، ولكنها سبيل واحدة لا شريك لها، هي القوة المادية، التي تتمثل في العلم والمال، فبالعلم والمال يبني الناس ملكهم، ويستردون حقهم.

ونحن لا نختلف وهؤلاء في ضرورة إعداد القوة المادية، واستخدام أقصى ما نستطيع من إمكانات العلم الحديث، فهذا ما أمرنا به ديننا وما فرضه علينا ربنا. قال تعالى: **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ}** [الأنفال: 60].

وقد قرر أئمة الإسلام أن كل علم يحتاج المسلمون إليه في دينهم أو دنياهم، فإن تعلمه وإتقانه فرض كفاية على المسلمين. فإذا لم يقم به عدد كاف به أثمت

---

(19) المصدر نفسه (ص22، 23).

الأمة كلها لتفريطها في هذا الواجب.

والقاعدة التي لا خلاف عليها بين كافة المسلمين: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فإذا كان تحرير أرض الإسلام، والدفاع عن حوزته وحرماته لا يتم إلا بإعداد أحدث الأسلحة، التي تماثل أسلحة العدو - إن لم تفق عليه - وكان إعداد هذا الأسلحة يتطلب كفاءات علمية قادرة في شتى مجالات العلوم الكونية والحيوية، فإن إعداد هذه الكفايات فريضة دينية تأثم الأمة كلها بالغفلة عنها أو التهاون في شأنها.

إن إعداد القوة المادية لا خلاف عليه. ولكن الذي نخالفه وننكره الاقتصار على هذا الجانب إلى حد «التعبد» له، كما قال بعضهم. وقد مر بنا قول ميخائيل نعيمة: «إن على العرب أن يتعبدوا للعلم والمال، لعل العلم والمال لا يخذلانهم حيث خذلهم ربهم»!

فالخطر الذي نقاومه هنا هو عبادة القوة المادية من دون الله، والإيمان بأنها هي وحدها «الإله» الذي يخفض ويرفع، ويقول للشيء: كن، فيكون.

فهذا - فضلًا عن انحرافه بالأمة عن عقيدتها ومنهجها، وإضلالها عن غايتها وطريقها - لن يؤدي إلى النصر المنشود على عدونا المتمكن في قلب وطننا.

يقول هذا الفريق من الناس: إننا بالتعبد في محراب العلم والمال نستطيع أن نتحول إلى مجتمع متمدن، مجتمع عصري، ينافس المجتمع الإسرائيلي ويسابقه في عصريته وتمدنه.

وبالعلم والمال، نصنع السلاح، ونعد القوة الرادعة، التي تقذف بإسرائيل

في البحر.

ونسى هؤلاء أننا بالعلم والمال وحدهما لن نغلب إسرائيل.

إن إسرائيل تملك من الكفايات العلمية ما لا نملكه، فكل يهودي متخصص في العالم يعتبر جنديًا في خدمة إسرائيل، ولا يعتبر من الخبراء الأجانب مادام يهوديًا. والعلم الغربي كله في خدمة إسرائيل، وكل ذهب اليهود في العالم في خدمة إسرائيل.

على أننا دخلنا المعركة الأخيرة - 5 يونيو سنة 1967 - بأحدث الأسلحة، وأضخم الاستعدادات فما أغنت عنا. لقيت منذ قليل أحد القادمين من سيناء، فسألته عن وقع الكارثة عليهم فقال: شيء لا يتصور، أنتم هنا سمعتم أنباءها فحسب. أما نحن فرأينا قبل أن نسمع. قلت: وماذا رأيتم؟

قال: رأينا أسلحة من أحدث طراز، تغطي الصحراء، وتسد عين الشمس، الدبابات الضخمة المجهزة التي قالوا إنها تزن ستين طنًا من الصلب. أقوى المدرعات والمصفحات، المدافع المضادة للطائرات والدبابات، لقد كنا نمر بها وننظر إليها ونقول: هنا يكمن موت إسرائيل. لقد حان أجلها. إنها ستخر لأول هجوم تشنه هذه القوة الهائلة ... ثم ... فوجئنا بهذا العتاد الضخم وهذه الأسلحة الرائعة يغادرها أصحابها دون أن يقاتلوا بها أو - على الأقل - يخربوها فلا ينتفع بها عدوهم، إذ كان أكبر همهم النجاة.

ما الذي حدث يا ترى؟ لقد صمد الذين قاتلوا بالأسلحة الفاسدة أكثر من هذا ... ليس النصر إذن بالسلاح بل بالرجل الذي يحمل السلاح.

وقد شاهدنا الجزائريين المسلمين ينتصرون على العلم الفرنسي والمال

الفرنسي، لأن الجزائريين كانوا يحاربون بدافع العقيدة الإسلامية، أما الفرنسيون فبدافع المصالح الاستعمارية. وسمعنا عن عصابات «الفيتكونغ» الشيوعيين ينتصرون على العلم الأمريكي والمال الأمريكي، لأن هؤلاء الفيتناميين يقاتلون بعقيدة - ولو أنها فاسدة - قومًا لا عقيدة لهم تدفعهم إلى الحرب.

لابد من استخدام العلم إلى أبعد مدى، ولابد من تجنيد المال إلى أقصى حد. ولكن ليس العلم هو كل شيء، ولا المال كل شيء، فطالما انتصر الأميون على المتعلمين، وانتصر الفقراء على الأغنياء.

يقول بن جوريون في عام 1949: «كل ما يجيء به العلم الحديث لا يكفي وحده لكسب الحرب. ولن تكون الكلمة الأخيرة للدبابة ولا للمدفع ولا للطائرة المقاتلة. إنما تكون للإنسان الذي يسخر هذه الوسائل لإرادته».

ولا بأس أن نأخذ الحكمة من أفواه الصهيونيين!!

4 - الوحدة:

وقال فريق رابع: إن الطريق إلى تحرير فلسطين هو الوحدة العربية، ورفع بعضهم شعار «الوحدة طريق العودة» وقالوا: بدون الوحدة لا نستطيع مواجهة إسرائيل وقد غدت ترسانة أسلحة، وباتت على أبواب صنع القنبلة الذرية.

ولا شك أن الوحدة العربية هدف يجب السعي إليه وهي خطوة لازمة في طريق الوحدة الإسلامية الكبرى، ولكن كيف السبيل إلى وحدة العرب، وقد تفرقت بهم المناهج والأهداف، بين يمين ويسار، وثورية ورجعية؟

إن الذي وحد العرب قديمًا وجعل من قبائلهم المتفرقة أمة واحدة تواجه الإمبراطوريات الكبرى بصف لا يتزعزع، وبناء لا يتصدع، هو الذي يستطيع أن يوحدهم اليوم ويلم شملهم المبعثر. إنه الإسلام، ولا شيء غير الإسلام ... الإسلام كما شرعه الله، لا كما تفسره المصالح والأهواء، وتستخدمه الأجهزة والسلطات أداة للتأثير والتخدير. وبدون العودة إلى الإسلام سينقسم العرب على أنفسهم، تبعًا للأهداف والمناهج التي يتخذونها لحياتهم، ووفقًا للرايات والشعارات التي يرفعها كل فريق. ولا عجب أن نرى الدول العربية وقد صنعت هذا التصنيف الحديث: فقوم يمينيون وآخرون يساريون، وفريق ثوري، وآخر محافظ أو إصلاحي أو رجعي، وجماعة مع الشرق، وأخرى مع الغرب، وهؤلاء ليبراليون وأولئك اشتراكيون.

وداخل كل فئة تجد انقسامًا آخر، تبعًا للقبلة التي يولي كل فريق وجوههم شطرها.

ولا مخرج من هذا الانقسام والتمزق إلا الإسلام.

وبدون العودة إلى الإسلام الحق ستظل الأنانيات الصغيرة هي التي تحكم، والشهوات الكبيرة هي التي تقود، ففي كل ناحية سلطان وفي كل قبيلة أمير ومنبر، ورحم الله القائل:

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكى انتفاخًا صورة

وهذه الأنانيات والشهوات هي التي أضاعت فردوسنا المفقود «الأندلس».

على أن الوحدة مهما يكن من وجوبها وفائدتها وخطرها، فليس من

الضروري أن يربط بها تحرير فلسطين، ربط اللازم بالملزوم، والمعلوم بالعلة، كما يقول أهل المنطق، فقد يكفى قدر من التضامن الإيجابي، وقد يكفي الوحدة الجزئية بين بعض البلاد العربية دون اشتراط الوحدة الشاملة.

ومع هذا قد كان في المعركة الأخيرة ثلاث دول أو أربع تحت قيادة عربية موحدة ولكن لم يغن ذلك عنها شيئًا، لأن البناء كله غير سليم، والأساس يحتاج إلى تغيير.

ولقد أجاب بعض المسئولين العرب عن سؤال طالما وجه إلي وإلى غيري من كثيرين من العرب ومن أصدقاء العرب، وسمعته كثيرًا في تركيا وفي غير تركيا .... هذا السؤال هو: كيف انهزم 100 «مائة مليون» عربي أمام 2 «اثنين مليون يهودي»؟

قال المسئول: لأن المليونين عبأوا قواهم والعرب لم يعبئوا قواهم.

وهذا الرد لا يشفي الغليل، فتعبئة الدول المتحررة وحدها يجب أن يكفي، بل تعبئة دولة كبيرة كالجمهورية العربية المتحدة كاف في ردع إسرائيل. ونسبة 30 إلى 2 نسبة غير قليلة أيضًا.

- الطريق الصحيح ... «الجهاد»:

والسؤال الذي يثب على كل لسان هو: ما الطريق إذن؟

والجواب: إنه طريق واحد لا ثاني له. إنه طريق «الجهاد». والجهاد الذي نعنيه: ليس جهادًا وطنيًا ولا قوميًا، إنما هو الجهاد الذي لم تعرف أمتنا غيره منذ أصبحت أمة لها مكان تحت الشمس، ولها رسالة في حياة البشر ولها دور في تاريخ الإنسان.

إنه «الجهاد في سبيل الله» تلك العبادة الإسلامية المقدسة، التي لا يعدلها صيام النهار ولا قيام الليل، حتى جاءت في الحديث: «**لمقام أحدكم في الصف خير من صلاته في بيته ستين عامًا**».

أنه «الجهاد في سبيل الله» تلك الفريضة التي أمرت بها الأمة، كما أمرت بالصلاة والركوع والسجود: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ 77 وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ}** [الحج: 77 - 78].

{ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ} [التوبة: 41].

إنه «الجهاد في سبيل الله» الذي انتصرت به هذه الأمة - من قبل - على الوثنية والمجوسية والنصرانية واليهودية. وانتصرت به - من بعد - على الزحف التتري، والغزو الصليبي.

إنه الجهاد الذي حققنا به انتصارات بدر وخيبر، واليرموك والقادسية، وحطين وعين جالوت وما بعد ذلك إلى الجزائر.

إنه الجهاد الذي أضعف روحه في الأمة الاستعمار الخارجي والطغيان الداخلي، والتحلل الفكري والخلقي، الذي قذفتنا به ريح الحضارة المادية الغربية، بشقيها الليبرالي والاشتراكي.

إنه الجهاد الذي أصبح اليوم - ومنذ عشرات السنين - فريضة عينية لإعادة حكم الإسلام واستعادة أرض الإسلام، وتوحيد أمة الإسلام تحت راية القرآن.

إنه الجهاد الذي فرطت الأمة فيه وفي الإعداد له، فغزيت في عقر دارها، وضربها الله بالذل فسيطر عليها عدوها. وحكمها من كان بالأمس محكومًا لها. حتى اليهود أجبن الناس في حرب وأحرصهم على حياة! وصدق الله العظيم إذ يقول: **{إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [التوبة:39].

إنه الجهاد الذي نودي به في باكستان في حربها الأخيرة مع الهند، وهي أكثر عددًا وعدة، فصنع الشعب المسلم الأعاجيب وكان أبناؤه يتراكضون إلى الموت - في لهف منقطع النظير - وبلغ من إيمانهم أن كثيرًا من الضباط والجنود أقسموا أنهم رأوا الملائكة تنزل عليهم ساعة القتال.

ولا يستطيع أحد أن يقول: إن الملائكة وقف على أهل بدر أو الخندق أو حنين!

إنه الجهاد الذي نودي به في الجزائر، فقدم شعبها «مليون شهيد» في المعارك بين «المسلمين» والفرنسيين. ولم تلق السلاح حتى تحقق لها النصر.

إنه الجهاد الذي نودي به - على نطاق محدود - في سنة 1948، فأيقظ الروح وألهب المشاعر، ورأينا من الشباب الطالب الذي يترك جامعته ليتطوع لإنقاذ فلسطين، ورأينا الموظف الذي يترك ديوانه، والتاجر الذي يترك دكانه، والفلاح الذي يبيع جاموسته - وهي رأس ماله - ليشتري بها بندقية يقاتل بها اليهود.

وإن أنس لا أنسى قصة «حسن الطويل» الفلاح المصري الذي تطوع وأبى إلا أن يبيع جاموسته ليسلح بها نفسه. فلما قيل له: يا حسن خل الجاموسة

للعيال، ويكفى أنك تجاهد بنفسك وغيرك يجاهد بماله. فقال: ولكن الله لم يشتر منا أنفسنا وحدها بل اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم. وأعطاهم الثمن: الجنة. فإذا أردنا الثمن فلنسلم الصفقة!

الطريق إلى النصر وإلى التحرير هو طريق الجهاد، ولا طريق غيره. ومن لم تقنعه قوة المنطق أقنعه منطق القوة، ومن لم يسمعه صرير الأقلام أسمعه صليل السيوف:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعًا وإن تلقه بالشر ينحسم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

- الجهاد يقتضى تغييرًا وتعبئة:

لا مفر إذن من الجهاد إن أردنا النصر.

ولكن الجهاد ليس كلمة تقال، ولا دعوى تدعى، ولا شعارًا يرفع فحسب، إنه اتجاه في حياة الأمة، يصبغ أحاسيسها وأخلاقها وسلوكها صبغة جديدة.

إن هذا الجهاد يحتاج إلى إعداد وتغيير في حياة الأمة، حتى تتحمل أعباءه مطمئنة، وتتقبل تكاليفه راضية. تغيير يحول الأمة من الفراغ والسلبية إلى العمل والإيجابية، من الأنانية إلى التضحية، من أمة تتغنى بسحر العيون ورمش الجفون إلى أمة تتغنى بحب الشهادة وفن الموت في سبيل الله. من أمة تقتل أوقاتها ومعنوياتها إلى أمة تقتل أعداءها. من أمة تحب الدنيا وتكره الموت إلى أمة تحرص على الموت لتوهب لها الحياة.

إن أمة تعيش للجهاد لابد أن تتغير حياتها كلها: سياستها ... اقتصادها ... مناهج التربية فيها، برامج التثقيف والترفيه. الأخلاق والآداب، المشاعر

والأحاسيس .... المفاهيم والتصورات ... الأنظمة والقوانين ... العادات والتقاليد ... كل شيء فيها يجب أن يتغير، ليلائم حياة الجهاد ورسالة المجاهدين في سبيل الله.

ولأمر ما، ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة عشر عامًا في مكة، نزل عليه فيها حوالي تسعين سورة [20] من كتاب الله، ولا هم له في تلك المدة إلا تربية الجماعة المؤمنة، وتغيير حياتها تغييرًا جذريًا، ينقلها من الجاهلية إلى الإسلام: من جاهلية العقيدة والفكر، وجاهلية الخلق والسلوك إلى عقيدة الإسلام، وأفكار الإسلام، وأخلاق الإسلام، وسلوك الإسلام.

كل ذلك قبل أن تنزل عليه - صلى الله عليه وسلم - آية واحدة تأمر بالقتال، وتدعو إلى الجهاد بالسيف والسنان.

حتى إذا نزل قوله تعالى: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}** [الحج: 39] انطلق جنود الله، واضعين رؤوسهم على أكفهم، لا يبغون إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الجنة.

ثم إن الجهاد يحتاج إلى قاعدة للانطلاق، إلى أرض تحطمت فيها الأصنام، وخلصت لكلمة الإسلام، وكتائب الرحمن، فكانت «المدينة» هي هذه الأرض الموعودة، والقاعدة المنشودة. التي انطلقت منها كتائب الحق لتدك الباطل، وصدرت منها جحافل التوحيد، لتحرر البشر من العبودية للبشر، وتعلى كلمة الله على كلمة الطاغوت.

ومن ثم يستوجب منا الفكر القويم أن نعيد النظر في تعبئة الأمة للجهاد من

---

(20) السور المكية باتفاق 82، والمدنية باتفاق 20، والمختلف فيها 12.

جديد: تعبئتها ماديًا - عسكريًا واقتصاديًا - وتعبئتها معنويًا - روحيًا وخلقيًا وفكريًا.

• التعبئة العسكرية لا تكفي:

ومعنى هذا: أن التعبئة العسكرية وحدها لا تكفي. فليس السلاح هو كل شيء في الحروب، فالسلاح يحتاج إلى اليد التي تستعمله، واليد تحتاج إلى الإرادة التي تحركها، والإرادة تحتاج إلى الإيمان الذي يدفعها ... وما أجمل ما قال الطغرائي في ذلك:

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل

وقال أبو الطيب:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا ... إذا لم يكن فوق الكرام كرام

• التعبئة الإيمانية والأخلاقية:

لابد إذن من تعبئة الأمة تعبئة إيمانية وروحية وخلقية، حتى تكون على مستوى الهدف، ومستوى المعركة، وإلا فليس بمستغرب أن نرى من جديد قادة يذيبون فحمة الليل في أحفال راقصة حتى مطلع الفجر، والعدو متربص، مفتوح العينين، مشدود اليدين ليضرب ضربته في الصميم، وليس بمستبعد أن يقدم السلاح الذي تشتريه الأمة بأقواتها هدية سائغة إلى عدوها.

إن هذه التعبئة المنشودة تقتضي تغييرًا جوهريًا في حياة أمتنا، تغييرًا يقوم ما اعوج من أفكارها وعقائدها، ويصلح ما فسد من مشاعرها وسلوكها، ويصحح ما انحرف من أنظمتها وقوانينها، تغييرًا يرجعها إلى ربها ودينها، ويردها إلى رشدها وإيمانها،

ويعيدها إلى نفسها بعد أن فقدت نفسها: {نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ} [الحشر: 19]

هذه هي السنة الاجتماعية الثابتة التي قررها القرآن الكريم وأكدها الواقع الماثل: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ} [الرعد: 11]

ليس المهم هو تغيير الأشياء المادية أو التنظيمية، مثل إعادة تسليح الجيش، وإعادة تنظيم القطاع العام، وتكوين المنظمات السياسية، وما شابه ذلك من أوضاع. فهذا كله ليس تغييرًا حقيقيًا. إنه تغيير عرضي يتناول الأدوار والممثلين فحسب أو يتناول الجوانب المادية فقط. وإن شئت فقل: هو إلهاء عن التغيير الواجب.

أما الشيء الأهم بل الشيء الأساسي، فهو التغيير المعنوي. التغيير في القيم والأفكار والمشاعروالأخلاق، وهذا ما اعترف صناع الهزيمة أنفسهم أنهم لم يفعلوه[21]. ومحال أن يكون هؤلاء أصحاب التغيير المنشود، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. وهل يستقيم الظل والعود أعوج؟

لابد من تغيير معنوي تتعاون قوى الأمة وأجهزة الحكومات كلها على تحقيقه.

هذا التغيير هو ضرورة عسكرية وضرورة قومية، كما هو ضرورة دينية وأخلاقية.

لابد من تنمية روح الإيمان، وعقلية الإيمان، وأخلاق الإيمان في الأمة

---

(21) قال رئيس تحرير الأهرام في مقال الجمعة 11 أكتوبر 1968: إن التغيير حدث فيما هو مادي ولم يحدث فيما هو معنوي إلا بصورة ضئيلة.

التي يراد إعدادها للجهاد. فالإيمان هو السلاح الأول في معركتها. وأمة بلا إيمان ستنهار لأول ضربة، وتخر صريعة لأول صدمة. والإيمان هو الذي يقاوم اليأس في قلوبها، والخلل في صفوفها، والطراوة في حياتها، والوهن في نفوسها، وأول الوهن حب الدنيا وكراهية الموت. والأمة التي تريد أن تحيا لابد أن تحرص على الموت حتى تستحق العيش. هكذا كان سيف الله خالد بن الوليد يبعث بكتبه إلى قواد الفرس والروم ليدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، ثم يختم كتبه بقوله: «وإلا جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»!

وفي حالة الصراع بين الأمم تنتصر الأمة التي لها عقيدة - أيا كانت - على الأمة التي لا عقيدة لها - أو كان لها عقيدة تخلت عنها.

فالأمة المؤمنة بعقيدتها - أيا كانت - تنتصر على الأمة التي أصابها الشك والتذبذب، وباتت تتقاذفها التيارات، تميل بها إلى الشرق والغرب واليمين واليسار، كالكرة بين أرجل اللاعبين، لا تستقيم على اتجاه ولا يقر لها قرار.

●الأساس الديني لإسرائيل والصهيونية:

وفي معركتنا مع الصهيونية العالمية - بصورة خاصة - يلزمنا الإيمان أكثر من معركة أخرى. ذلك أن عدونا يسلح جنوده وأبناءه بعقيدة دينية، ودوافع دينية، وأحلام دينية، ولهذا اختار وطنه القومي في «أرض الميعاد» وسماها «إسرائيل» وأعلن «بن جوريون» أحد قادتها أن لا معني لإسرائيل من غير القدس، ولا معني للقدس بغير الهيكل!! وبعث برسالة إلى «ديجول» قال فيها: إن التوراة هي أساس جميع الأعمال التي تتخذها إسرائيل.

وسئل «موسى ديان»: هل كنتم تشعرون أن الله معكم في معركة 5 «حزيران»؟ قال: كنا نشعر أننا في جانب الله!

وقال مرة: إن جيشنا ليست مهمته الأساسية حماية الصناعات. إنما رسالته حماية المقدسات وعلى هذا الأساس يتدرب ويقاتل.

إن فلسطين في نظر اليهود تسمى «أرض الميعاد» أي الأرض التي وعد الرب بها بني إسرائيل. ويرجع هذا الاعتقاد إلى ما ورد في التوراة أن الرب قد أعطى إبراهيم عهدًا قائلًا له: «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات».

وهذا النص هو الأساس الديني لتعلق اليهود بفلسطين ومطامحهم فيها، ومطالبتهم بها. يقول الدكتور «جاييم وايزمن» أحد أقطاب الحركة الصهيونية وأول رئيس لدولة إسرائيل: «إن الشعور الديني هو مصدر الصهيونية والحافز لقيامها. هذا الشعور الناجم عن التقاليد والمعتقدات اليهودية، والمبني على أقدم الذكريات للبلاد التي تنشأ فيها الحياة اليهودية الأولى والتي مارس فيها اليهود حريتهم».

ولا عجب أن كان مما يقوله اليهودي في صلاته: «لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم».

ومن الغريب أن بعض الناس يتجاهلون الحقائق الملموسة، ويحاولون أن يصفوا الحركة الصهيونية بأنها حركة سياسية علمانية مجردة، وأن الصهيونية شيء واليهودية شيء آخر أعم منها، فكل صهيوني يهودي، وليس كل يهودي صهيونيًا.

وهذا كلام خاطئ أو مضلل، فقد أثبتت الوقائع والأيام والتصريحات المختلفة لزعماء الصهيونية، والمواقف المختلفة ليهود العالم: أن الصهيونية حركة يهودية عالمية، وأن اليهودية والصهيونية متلازمتان ولا يمكن أن يفترقا. وأن كل يهودي هو في الواقع صهيوني.

ولقد عرف بعض كتاب اليهود الصهيونية بأنها: «إيمان باليهودية وما تعنيه من مفاهيم فكرية وتاريخ وعادات من الناحية النظرية، ثم الهجرة إلى فلسطين للإقامة فيها بقصد بناء الدولة من الناحية العملية». ويقول «حاييم وايزمن»: «إن يهوديتنا وصهيونيتنا متلازمتان متلاصقان، ولا يمكن تدمير الصهيونية بغير تدمير اليهودية»[22].

ويقول «بن جوريون»: إن الصهيونية تستمد وجودها وقوتها من مصدرين:

1 - المصدر الأول مصدر عاطفي دائم - مستقل عن الزمان والمكان، قديم قدم الشعب اليهودي ذاته، إنه يتمثل في الوعد الإلهي والأمل في العودة، ذلك الوعد الذي يتمثل في قصة اليهودي الأول الذي أبلغته السماء أن: «سأعطيك وذريتك من بعدك جميع أراضي بني كنعان ملكًا خالدًا لك».

2 - والمصدر الثاني: هو الفكر السياسي للشعب اليهودي ... الخ».

وفي المؤتمر الخامس والعشرين للصهيونية العالمية، والذي عقد في القدس المحتلة في 25 ديسمبر 1960، تحدث «بن جوريون» في ختامه، وهو رئيس حكومة إسرائيل حينئذ قائلًا: «إن كل يهودي يجب أن يهاجر إلى

---

(22) الصهيونية وربيبتها إسرائيل - تأليف عمر رشدي (ص54)

إسرائيل، وإن كل يهودي أقام خارج إسرائيل منذ إنشائها، يعتبر مخالفًا لتعاليم التوراة، وإن هذا اليهودي يكفر يوميًا باليهودية»[23].

ترى أهذه فتوى حاخام أم رأي زعيم سياسي؟

ويقول المفكر اليهودي «سولمون شيختر»: «حيثما يكون الصهيونيون عاملين نشطين، تكون اليهودية حية فعالة».

ويقول زعيم الحركة الصهيونية الأول «تيودور هرتزل» موضحًا الرابطة بين اليهودية والصهيونية: «إن العودة إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية».

هذا ما قرر في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في «بال» سنة 1897

ولا عجب أن يكون أول دبابة تدخل سيناء تحمل آية من التوراة! وأن يكون شعار المقاتلين اليهود الذين دخلوا القدس: يا لثارات خيبر!

وأن يكون أول ما يصنعه زعماء اليهود بعد الاستيلاء على القدس هو الذهاب إلى حائط المبكى. وأن يكون أكبر همهم الآن هو تشييد هيكل سليمان، على أنقاض المقدسات الإسلامية.

هكذا نرى عدونا يدخل الإيمان الديني بكل قوته في المعركة، ولا يخشى أن يتهم بالرجعية، أما نحن فنتجهم في وجه الدين، ونضيق على دعاته، وقد نكافئهم بسياط التعذيب أو بحبال المشانق! ونفسح صدور صحفنا وأجهزة أعلامنا لتشتم الذات الإلهية أو تجحد النبوات والأديان، في أرض هي مهد النبوات، ومنبت الديانات.

---

(23) المصدر السابق.

لقد قال الخليفة الأول أبو بكر الصديق لقائده المظفر خالد بن الوليد في إحدى وصاياه: حارب عدوك بمثل ما يحاربك به: السيف بالسيف والرمح بالرمح ....

وهذا منطق لا غبار عليه من الوجهة العسكرية المحضة. فإذا كان عدونا يحاربنا بالدين حاربناه بالدين أيضًا. فإذا جند عدونا جنوده باسم «يهوه» إله إسرائيل، جندنا جنودنا باسم الله رب العالمين. وإذا دفع جنوده باسم اليهودية، دفعنا جنودنا باسم الإسلام. وإذا قاتلنا بالتوراة قاتلناه بالقرآن. وإذا جاءنا تحت لواء موسى، جئناه تحت لواء موسى وعيسى ومحمد، فنحن أولى بموسى منهم. وإذا ذكروا نبؤات «أشعيا» ذكرنا نحن أحاديث البخاري ومسلم.

وإذا حاربنا من أجل الهيكل حاربناه من أجل المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

وإذا قال عدونا لجنوده: أنتم شعب الله المختار، قلنا لجنودنا: أنتم خير أمة أخرجت للناس. وبهذا نكون نحن المتفوقين، لأننا أصحاب الدين الأقوى، ولا يفل الحديد إلا الحديد.

إن أثر التعبئة الإيمانية أو الدينية في خلق «الروح المعنوية» وتقويتها لدى الجندي المقاتل، أمر لا يجحد، حتى إن الروس الشيوعيين أنفسهم اضطروا في الحرب العالمية الثانية أن يسمحوا للدين ورجال الدين بالحركة والحرية ليرفعوا الروح المعنوية للشعب وللجيش، وهم الذين تقوم فلسفتهم على أن الدين خرافة، وأن الدين مخدر.

وإذا أردنا الاستدلال على أثر الإيمان في المعارك فالمجال ذو سعة، ولا

أريد هنا أن أكتب عن «بدر» وغيرها من غزوات الرسول، ولا عن «اليرموك» و«القادسية» وغيرهما من معارك الفتح الإسلامي، ولا عن «حطين» و«عين جالوت» من معارك المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي والتتري.

إنما اكتفى هنا بمثل واحد من حياتنا المعاصرة:

هذا المثل: من أرض فلسطين نفسها سنة 1948، من بطولات المتطوعين، الذين صنعوا العجائب، وحققوا ما يشبه المعجزات، على الرغم من ضعف الإمكانات، وقلة المساعدات، وسوء الأوضاع المحيطة.

وكيف لا وقد خرجوا يطلبون الشهادة، ويسعون إلى الموت ركضًا، حتى قال أحد اليهود لضابط مصري[24] كان أسيرًا لديهم: نحن لا نخاف أي قوة كما نخاف من هؤلاء المتطوعين. فسأله: وما الذي يخيفكم منهم؟ قال اليهودي: لقد هاجرنا وجئنا من بلاد شتى إلى هذه الأرض لنعيش، وهؤلاء جاءوا ليموتوا!

أجل ... لقد دخل هؤلاء أرض فلسطين وليس لهم هدف ولا أمل إلا إحدى الحسنيين: النصر أو الجنة، فكيف يخافون الموت أو يرهبون العدو؟

لابد من التعبئة الإيمانية للأمة إذا أردنا النصر، ولا تتم التعبئة الإيمانية إلا بالتعبئة الأخلاقية، فالأخلاق ثمرة الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا عهد لمن لا خلق له.

فإذا لم ترب في الأمة معاني الخشونة والتضحية والصبر على المكاره،

---

(24) هو الضابط المجاهد معروف الحضري.

والانتصار على الشهوات والاستعلاء على الغرائز، والعفة عن الحرام، والبعد عن الميوعة والطراوة وأخلاق المخنثين، والمتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال - فهيهات أن نصمد في وجه العدو أو نصبر على حر المعركة، أو نحتمل شظف الجهاد.

إن الأمم تبقي ببقاء الأخلاق فيها، وتذهب بذهابها.

فإذا كنا نريد أن نغسل عار نكبتين، فلنغير أخلاقنا. من أخلاق الضعف إلى أخلاق القوة، من أخلاق العبيد إلى أخلاق الأحرار، وبعبارة أخرى من أخلاق الفجار إلى أخلاق المؤمنين.

وجماع أخلاق المؤمنين ما عرف في الإسلام باسم «تقوى الله» التي فهمها بعض الناس خطأ، فحسبوها ضربًا من الدروشة أو العزلة أو السلبية في مواجهة الحياة والناس. وما هي إلا ضمير أيقظته خشية الله، يدفع صاحبه إلى التحلي بمكارم الأخلاق، والتخلي عن سفاسفها، في معاملة الحق أو معاملة الخلق.

إن عمر بن الخطاب لم يكن «درويشًا» ولا «مجذوبًا» حين بعث إلى قائد جيوشه سعد بن أبي وقاص وهو يواجه جيوش كسرى، بقوله: «يا سعد. أوصيك ومن معك بتقوى الله عز وجل. فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب ... وأعلم أن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وأنا لا ننتصر على عدونا بعدد ولا عدة، فعددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، وإنما ننتصر بمعصية عدونا لله وطاعتنا له، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة. وإلا نغلبهم بطاعتنا لم نغلبهم

بقوتنا».

وبهذه الأخلاق - أخلاق المتقين، أخلاق النبوة - انتصر المسلمون على دول كانت أكثر منهم عددًا وأعرق حضارة وأشد قوة.

يحكى لنا ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية» أن هرقل إمبراطور الدولة البيزنطية، حين قدمت عليه منهزمة الروم وهو على أنطاكية، قال لهم: «ويلكم، أخبروني عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرًا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر ونزني ونركب الحرام، وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهي عما يرضي الله ونفسد في الأرض. فقال: أنت صدقتني».

وسأل هرقل - هذا - رجلًا كان قد أسر مع المسلمين فقال: أخبرني عن هؤلاء القوم، فقال: أخبرك كأنك تنظر إليهم، هم فرسان بالنهار رهبان بالليل، لا يأكلون في ذمتهم إلا بثمن، ولا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه، فقال: لئن كنت صدقتني ليملكن موضع قدمي هاتين.

ووصف رجل من الروم المسلمين لرجل من أمراء الروم فقال: جئتك من عند رجال دقاق يركبون خيولًا عتاقًا، أما الليل فرهبان وأما النهار ففرسان، يريشون النبل ويبرونها ويثقفون القنا، لو حدثت جليسك حديثًا، ما فهمه

عنك[25] لما علا من أصواتهم بالقرآن والذكر، قال: فالتفت إلى أصحابه وقال: «أتاكم من لا قبل لكم به».

إن أمتنا انتصرت قديمًا على اليهود وطهرت جزيرة العرب من شرهم، لأنها كانت الأمة الأقوى إيمانًا وأخلاقًا.

كان اليهود أحرص الناس على حياة - كما وصفهم القرآن - وكنا أحرص الناس على الموت في سبيل الله.

كانوا كما وصفهم الله: **{تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ}** [الحشر: 14].

وكنا كما خاطبنا الله تعالى: **{فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا}** [آل عمران:103].

كانوا كما خاطبهم القرآن: **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً}** [البقرة: 74].

وكنا كما وصف الله المؤمنين: **{ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا}** [الأنفال: 2].

كانوا: **{لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ}** [المائدة: 79].

وكنا كما خاطبنا ربنا: **{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ}** [آل عمران: 110].

كانوا يعبدون الذهب، حتى إنهم عبدوا عجلًا اتخذ من حلي. وكنا نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئًا، ولا أحدًا.

---

(25) كتاب «إلى الإسلام من جديد» تأليف السيد أبو الحسن الندوي (ص63، 64)، دار الإرشاد «بيروت»

كانوا كما خاطبهم الحق تعالى: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ} [البقرة: 85].

وكنا كما خاطبنا جل جلاله: {وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ} [آل عمران: 119].

كانوا يأكلون الربا وقد نهوا عنه، ويأكلون أموال الناس بالباطل. وكنا نحرم الربا قليله وكثيره، ونخاف الدرهم الحرام، واللقمة الحرام. فإن كل ما نبت من حرام فالنار أولى به.

كانوا يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وكنا نحن حماة الرسالات، والذائدين عن حمى الدعوات.

أما الآن ... فقد تغيرت أنفسنا عما كانت عليه. وأصابنا رذاذ من أخلاق اليهود ورذائل اليهود. الحرص على الحياة، التفرق، القسوة، الأنانية، تحريف الكلم عن مواضعه، الإيمان ببعض الكتاب دون بعض ... أكل الربا، قتل الدعاة إلى الله، السكوت على الفساد وعدم التناهي عن المنكر.

فاستوينا مع اليهود في الرذيلة والمعصية، وكان لهم الفضل علينا في مجالات أخر: في التخطيط والتنظيم وحسن التعبئة لكل القوى المادية والبشرية.

بل أقول: إن اليهود قد سرقوا بعض أخلاقنا وبعض فضائلنا. في الوقت الذي نقلوا هم إلينا رذائلهم القديمة أو نقلناها نحن راضين مختارين، بعد أن حقنوها بالحقن الفكرية المخدرة التي تجعلنا نستسلم لكل ما يصنعونه لنا من أزياء و«مودات» لنسائنا مما عند الركبة، وفوق الركبة وما فوق فوق الركبة ... ومن تقاليع تدمر شبابنا، وتميت فيهم كل روح للخشونة والجهاد.

إن اليهود الذين عرفوا بعبادة الذهب أصبحوا يبذلون الملايين عند الحاجة لتحقيق فكرتهم وبناء دولتهم. وأغنياؤنا مشغولون بالرحلات المترفة إلى أوروبا وغيرها حيث ينفقون مئات الألوف على اللهو والفراغ والعبث والمجون، أو الدعاية الجوفاء، فإذا طالبتهم ببذل دفعوا لك دراهم معدودات، لا تسمن ولا تغنى من جوع!!

إن اليهود «الجبناء» قد دربوا أبناءهم - بل وبناتهم - على أن يكونوا جميعًا حين يدوي النفير جيشًا مقاتلًا. لا يتخلف منهم أحد، وأبناؤنا وبناتنا - نحن المهزومين - مشغولون بأغاني شادية وصباح وعبد الحليم حافظ!!

فلا غرابة بعد ذلك إذا خذلتنا رذائلنا، وانتصر اليهود علينا فإنما هو انتصار للقوة على الضعف، وللنظام على الفوضى. وللبذل على البخل، وللجد على الهزل، وللعمل على الفراغ.

●تعبئة ننادي بها جميع الفئات:

إن التعبئة الدينية الأخلاقية للشعب والجيش أصبحت أمرًا ينادى به جميع الفئات الواعية من العرب والمسلمين.

ولا زال في آذاننا صوت وكيل الخزانة في القاهرة الذي وقف يقول في أحد المؤتمرات: «لابد من إدخال الدين في المعركة، فإن اليهود يقاتلوننا انتقامًا لهزيمتهم في خيبر، وغيرها».

فهو رأي لم يدع إليه علماء الدين فحسب بل دعا إليه رجال مدنيون في جميع القطاعات، ولم يناد به المدنيون فحسب، بل نادي به القادة العسكريون أيضًا.

فهذا القائد الأردني السيد «عبد الله التل»، يرسم سبيل النجاة كما يراه في قضية فلسطين[26] فيقول:

أولًا: يجب أن نخوض معركة فلسطين على أساس الجهاد الديني، ذلك لأن فلسطين بلد إسلامي مقدس، كل شبر فيه ممزوج بدماء الصحابة والمجاهدين، يضم المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، الذي أسرى بالنبي الكريم إليه. ويضم مسجد الصخرة، ومئات المساجد والمقامات الإسلامية الأثرية المقدسة، ويضم كذلك المقدسات المسيحية وأهمها قبر المسيح ومهده.

ثانيًا: إن فلسطين ليست بلدًا عربيًا اغتصب فحسب، وإنما هي بلد إسلامي بالدرجة الأولى، لأنها تعد مهوى أفئدة 700 مليون مسلم، يقدسونها كما يقدسون مكة المكرمة والمدينة المنورة. وهي ليست ملكًا لعرب فلسطين وحدهم ولا للأمة العربية وحدها وإنما هي ملك جميع المسلمين، وواجب الدفاع عنها فرض عين على كل مسلم على وجه الأرض».

بل أقول: إن هذه التعبئة لم يدع إليها المسلمون وحدهم، بل دعا إليها الواعون المخلصون من المسيحيين العرب أيضًا.

يقول الكاتب العربي المسيحي الأستاذ «حبيب جاماتي»: «لقد حان الوقت لكي تركز الدعاية العربية ضد الصهيونية على المشاعر الدينية، بعدما ظلت إلى الآن مركزة على نواح كثيرة أخرى ما عدا الدين.

«إن الدعوة الصهيونية قامت على الفكرة الدينية وعلى الشعور الديني

---

(26) في كتابه: «خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية».

وعلى التعصب الديني، وعلى إثارة النعرة الدينية دون غيرها من النعرات، وما الناحية العنصرية في تلك الدعوة غير مظهر من مظاهر التعصب الديني. ففي الشرق الأدنى الآن بقعة من الأرض العربية سرقها اليهود باسم الدين، وأنشئوا فيها دولة قائمة على الدين ولا يزالون يبثون في أنحاء العالم دعايتهم المنبعثة من الدين ...

«وبناء على أن مقاومة السلاح بمثله من البديهات التي لا تتطلب تفكيرًا، ولا تستحق جدلًا ... وبناء على أن العرب حتى الآن قد بنوا دعايتهم المضادة لدعاية اليهود على أسس وحجج ودعائم وحقائق سياسية واقتصادية واجتماعية وتاريخية تاركين الناحية الدينية جانبًا، فإن الحالة الخطيرة التي وصلت إليها قضية فلسطين من جراء ذلك كله تتطلب الآن أن يعمد العرب إلى نفس السلاح الذي استخدمه اليهود ضدهم ... وهو إثارة النعرات الدينية ليقابلوا بها النعرة الدينية اليهودية»[27].

وهذه الكلمات الصريحة الناصعة تبطل كل حجة لأولئك الذين يريدون إبعاد الدين وإخفاءه مجاملة لإخواننا النصارى الذين قد يسوءهم ذكر الإسلام، وتعبئة المشاعر باسمه وتحت رايته. وما أصدق ما قاله السياسي المصري «مكرم عبيد»: أنا نصراني دينًا مسلم وطنًا.

●الدين غاية تقصد لا أداة تستغل:

وأود أن أنبه هنا أننا لا نريد استغلال الدين لمعركة وقتية ثم نرمي به في سلة المهملات بعد ذلك. أي اتخاذ الدين مطية لغرض موقوت لا غاية في

(27) مجلة الشبان المسلمين - القاهرة - عدد إبريل سنة 1964.

نفسه. فإن هذا إهانة للدين، وانحطاط برسالته في الحياة، والدين الذي يتخذ أداة لكسب سياسي لا يثير نفسية شعب. على أن شعبنا ذو حساسية مرهفة من هذه الناحية. فما أن يشعر بأن الدين مستغل للسياسية والسلطان حتى ينفر من المتمسحين به، والمتحدثين باسمه، وهنا لا يفيد استخدام الدين سلاحًا في المعركة كما يراد له.

ولهذا فنحن لا نريد التمسح بالدين على طرق التصنيع والتمثيل والشعوذة، وإنما نريد عودة حقيقة إلى الدين، ورجوعًا حقيقيًا إلى الله، تزكو به الأنفس وتطهر الأيدي، وتنظف به الحياة، وتستقيم الأخلاق والمشاعر والأفكار والأعمال.

إن الناس - مع الله - أصناف ثلاثة:

خيرهم الذي يعرف الله في السراء فيعرفه تعالى في الضراء والبأساء، كما في الحديث: «**أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

ودون ذلك الذي ينسى الله في الرخاء والعافية فإذا صدمته النوائب أفاق من سكرته، وصحا من غفلته، ووقف على عتبة ربه منيبًا إليه ضارعًا يقول: **{رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ}** [الأعراف: 23]

وفي المشركين أنفسهم كثير من هذا الصنف الذي وصفه القرآن فأحسن الوصف إذ قال: **{حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ**

مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} [يونس: 22]

فقد نسى هؤلاء في ساعة الكربة، آلهتهم وأصنامهم ولم يذكروا إلا الله وحده.

وشر الأصناف الثلاثة: ذلك الذي عمى قلبه وطمست بصيرته، فلم يعرف الله في رخاء ولا شدة، ولم يذكره في سعة ولا ضيق، ولم يقرع بابه رغم ما نزل به من ضرر وما حل بساحته من بلاء جدير بأن يوقظ قلبه، ويذكره به، ولكن لم تغنه الآيات والنذر.

فهذا الصنف هو الذي جاء فيه قول الله سبحانه:**{وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ 75 وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}** [المؤمنون: 75، 76].

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ 42 فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 42، 43].

ونحن لا نرضى أن نكون شر الأصناف الثلاثة، فإذا لم نكن خيرها وأفضلها فلنكن الصنف الثاني الذي يتعلم من أيام الله، ويزدجر بالحوادث والقوارع فيرجع ويتوب.

إن الله لا ينزل البلاء بالناس رغبة في تعذيبهم والانتقام منهم، كلا، إنما هو لون من الأدب الإلهي لهم ليتوبوا ويستقيموا، وإنذار لهم ليفيقوا ويهتدوا كما قال سبحانه:**{ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الروم: 41].

فالله تعالى لا يؤاخذهم بكل ما كسبوا من ظلم، ولا يذيقهم كل ما عملوا من إثم: **{وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ}** [النحل: 61]، ولكن يذيقهم: **{بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ}** [الروم: 41] ولماذا؟ **{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الروم: 41].

فإذا لم ترجع الأمة إلى ربها بعد نكبة ونكبتين، وطامة وطامتين فمتى ترجع؟ ومتى تئوب؟

ترى هل نحن في حاجة إلى نكبة أخرى، أو نكبات أخر، ليصحوا السكارى ويتنبه الغافلون، ويجد الهازلون، ويهتدي الضالون؟

أليس من المحزن أن لا تزال الأقلام الملحدة تناوش الدين، وتتطاول على ذات الله تعالى وذات رسله؟

بلى، وقد قرأنا في كتاب لأحد التقدميين جدًا[28] أسماه «من النكسة إلى الثورة» قال فيه:

«إن العالم سيجد نجاته - إن كان من الممكن ذلك - عن طريق المتمردين، فبدونهم ستلقي حضارتنا وثقافتنا وكل ما نحب نهايته .... فهؤلاء المتمردين هم ملح الأرض، ومسئولون عن الله، لأنني مقتنع بأنه لم يوجد بعد، وإن كان علينا أن نخلقه».

فهل تنتصر أمتنا بهؤلاء الثوريين المتمردين على الله وعلى شرائعه ورسالاته؟ أم نسير من نكسة إلى نكسات، ومن كارثة إلى كوارث؟

أليس من المخجل أن تظل هذه الأفكار تجد من ينشرها ومن يقرأها بعد أن قرعتنا النذر، وجاءنا من الأرزاء ما فيه مزدجر؟

---

(28) نديم البيطار.

إن هؤلاء الثائرين «على الله»، «المتمردين» على القيم العليا، الخارجين على الأمة، المرتدين عن صراطها ... لم يكونوا - ولن يكونوا - يومًا رجال فداء ولا أبطال قتال.

ولن تتحرر فلسطين وينتصر العرب بهؤلاء أبدًا.

لن تتحرر فلسطين وتزول إسرائيل بتاركي الصلوات ومتبعي الشهوات.

لن تتحرر فلسطين بالعابثين من شراب الخمور وعشاق الفجور.

إني على يقين أن إسرائيل لن تزول، وفلسطين لن تتحرر، إلا على أيدي المؤمنين الصادقين، الراكعين الساجدين، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والحافظين لحدود الله. الذين يخوضون المعارك أطهارًا متوضئين، قد توضأت قلوبهم قبل أن تتوضأ أعضاؤهم.

أولئك الذين لا يقف لهم أحد، ولا تصمد أمامهم قوة إذا نادي فيهم المنادي: هبي يا ريح الجنة. يا نصر الله اقترب. يا رجال القرآن زينوا القرآن بالفعال.

أولئك الذين يثورون على التفكير المادي، ويسخرون من لغة الأرقام، ولا يعبأون بما لدى العدو من «كم» واثقين بما معهم من «كيف»، قد اتسع أفقهم فتجاوزوا الأرض إلى السماء، وتخطوا عالم الشهادة إلى عالم الغيب. وآمنوا بأنهم إن فقدوا ولاية الناس ونصرة العالم، فإن معهم الله جل شأنه**{وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا}** [النساء: 45] ومعهم جنود الله **{وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** [المدثر: 31] أولئك هم الذين ستتحرر بهم فلسطين، وتقتلع بهم جرثومة اليهودية من أرض الإسلام، ليس لهؤلاء هدف إلا إعلاء كلمة الله، ولا عنوان إلا الإسلام، ولا شعار إلا العبودية لله، ولا هتاف إلا «الله أكبر».

وإلى هؤلاء المحاربين المؤمنين أشار رسولنا صلى الله عليه وسلم في حديث له حيث قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم ... يا عبد الله ... هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله ...**» (29).

هؤلاء هم قتلة اليهود ومحررو فلسطين. إنهم «المسلمون» لا الأردنيون ولا السوريون ولا الفلسطينيون ولا العرب، فقد تخلوا عن هذه العناوين، ولم يبق لهم عنوان إلا «المسلمون».

هؤلاء هم الذين تكون الطبيعة كلها في صفهم حتى الحجر والشجر.

هؤلاء هم الذين يناديهم الحجر والشجر: «يا مسلم». «يا عبد الله».

فليس لهم راية إلا الإسلام، وليس لهم شعار إلا العبودية لله وحده.

هذا هو المقاتل الذي ترتجيه الأمة، وهو الذي سيزيل ملك إسرائيل والذي سيقتل اليهود، وكما نبأنا من لا ينطق عن الهوى. إنه «المسلم» ... المسلم الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، واتقدت بين جوانحه شعلة اليقين، وباع الحياة الدنيا بالآخرة. وليس المسلم «الجغرافي» الذي ورث الإسلام من أبويه كما ورث اسمه ولقبه. فليس له من الإسلام إلا العنوان والتسجيل في شهادة الميلاد.

إنه «عبد الله»، أما عبد الشهوات، عبد المرأة، عبد الكأس، عبد الدينار والدرهم، عبد المبادئ المستوردة من صناعة اليهود، عبد الأفكار الدخيلة التي يتحفنا بها اليهود، وفروخ اليهود ... أما هذا فلن يتحقق به نصر، ولن

---

(29) رواه مسلم.

تتحرر به أرض، ولن ترتفع به لأمتنا راية، وليس من ورائه ... إلا النكسات والوكسات ...

●التعبئة الفكرية:

ومع التعبئة الإيمانية والأخلاقية لابد من تعبئة فكرية.

لابد من تثقيف الأمة حتى تعي حقيقة نفسها، وحقيقة عدوها.

إن الأمة لا تنتصر إلا إذا أدركت درجة من الوعي بذاتها، يكشف لها عن مشخصاتها وعن رسالتها وأهدافها، وما يميزها عن عدوها.

وضد هذا الوعي هو الغفلة، التي جعل القرآن أصحابها أضل من الأنعام سبيلًا، وأخبر عنهم بأنهم حطب جهنم، ووقود النار: **{وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ}** [الأعراف: 179].

والمسلمون الأوائل كانوا أبعد الناس عن «الغفلة» وأوفاهم حظًا من «الوعي» الذي سماه القرآن «الفقه» أو «العقل».

كان المسلمون يعرفون من هم، وما غايتهم، وما رسالتهم على ظهر الأرض، ومن هو عدوهم الذي يقاتلون ... وكان مقاتلوهم لا يفهون شيئًا من ذلك إلا ما يصب في آذانهم تلقينًا كأنهم الببغاوات.

والذي يقرأ القرآن الكريم تتضح له هذه الحقيقة جلية ناصعة فها هو يخاطب الرسول بعد غزوة «بدر»، فيقول: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى**

ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} [الأنفال: 65].

علل غلبة المؤمنين على الكفار، رغم قلة عدد المؤمنين «1: 10» بأن الكفار قوم لا يفقهون، فهي غلبة مفهومة، جارية على سنن الله في كونه.

ويخاطب المؤمنين في شأن اليهود فيقول:**{لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ 13 لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ}** [الحشر: 13، 14].

ولقد رأينا مصداق ذلك في فتوح الإسلام وشاهدنا الأعرابي البسيط الذي لم يتخرج في مدرسة، ولا اختلف إلى المعلمين يقول لرستم قائد الفرس وقد سأله: من أنتم؟ فيقول بملء فيه: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

هذا هو «الفقه» الذي تنتصر به الأمم وتعلو كلمتها، وهو فقه لا ينبت ولا ينمو إلا في ظلال الإيمان وأخلاق الإيمان.

فإذا انقلبت الأوضاع وأصبح المسلمون أقل فقهًا وأضعف وعيًا، وبات أعداؤهم أكثر منهم وعيًا، وأنضج فكرًا، فلابد أن يميل الميزان ويتغير اتجاه الريح ويصير الظفر للذين يعون ويفقهون، لا للذين يصيحون ويهرجون، والموتى الذين لا يشعرون أيان يبعثون.

إن التعبئة الفكرية لا تكون بالثقافة المسمومة التي يصدرها إلينا اليهود

وتلاميذ اليهود، من أمثال «فرويد» و«دور كايم» و«ماركس» و«لينين»[30] و«سارتر» وغيرهم من الأصنام المعبودة عند «التقدميين» من كتابنا ومثقفينا ...

إن هذه البضاعة اليهودية الملوثة ليست هي «الفقه» الذي ننشده لأمتنا ولا الثقافة التي نرتجيها إليها.

ومن المحال أن نطلب من الأمة التحرر من براثن اليهود، في الوقت الذي تتلمذ فيه على أفكار اليهود، وثقافة اليهود، ونزعم لأنفسنا حرية الفكر، ونحن لهذا الفكر الأجنبي الغازي أساري بل عبيد.

فإذا كنا نريدها تعبئة فكرية حقًا، فلنحرر مصادر معرفتنا من آثار استعمار الفكرية، وآثار الصهيونية الفكرية المخزية. وإلا كانت تعبئة كفرية، لا تعبئة فكرية.

ومن التعبئة الفكرية التي نريدها أن تعرف أمتنا الأشياء كما هي دون غلو ولا تحريف. وتعرف عدوها كما هو بلا مبالغة ولا تزييف.

ومن صور التزييف والتهريج ... أن أكثر أجهزة الإعلام في بلادنا، تحاول التقليل من شأن عدونا، والتهوين من أمره، فهو دائمًا في أزمة اقتصادية آخذة بالخناق، وفي أزمة سياسية وخلاف وانشقاق، وهو دويلة تقوم على الشحاذة والتبرعات من أيدي المحسنين.

وهو مجتمع تهدده التناقضات الداخلية بالتفسخ والانهيار.

---

(30) انظر: فصل «اليهود الثلاثة» من كتاب التطور والثبات في حياة البشرية للأستاذ محمد قطب، وراجع كذلك «الصهيونية العالمية» للأستاذ عباس محمود العقاد.

وهو ... وهو ... إلى آخر ما قرأناه وما سمعناه.

وهذا اللون من التفكير لا يثمر إلا تضليل الأمة عن حقيقة عدوها، وحقيقة طاقاته وإمكاناته، ومثل ذلك من يضخم من شأن العدو ويجعل من الحبة عنده قبة، ومن القط جملًا، وكلا الطرفين مذموم. وأولى بنا أن نعرف العدو كما هو، وعلى حقيقته، بلا تكبير ولا تصغير، ولا تهويل ولا تهوين.

إن التضخيم من شأن العدو قد يصيب بعض النفوس باليأس أو بالفزع.

كما أن التهوين منه قد يؤدي إلى الغرور بالنفس، والاستهتار بالعدو، وعدم الاستعداد الكافي له، وأخذ الحذر اللازم منه.

ولقد جربنا هذا التهوين فلم نجن من ورائه ثمرة، ظللنا سنين طويلة نقول: إسرائيل «المزعومة»، ثم خجلنا من أنفسنا بعد ذلك، حين رأينا هذه المزعومة تتحدي وتناوش الجبهات العربية كلها، تلطم هذه وتركل تلك، فاضطررنا إلى حذف كلمة «المزعومة» من قاموس الصحافة والإعلام عندنا، وأوشكنا أن نكون نحن «المزعومين»!

ومن التعبئة الفكرية: أن نعرف من صديقنا ومن عدونا بين الأمم والشعوب، فقد وجدنا دولة إفريقية تفتح صدورها وأرضها لإسرائيل، وخبراء إسرائيل، وتفتح أسواقها لبضائع إسرائيل، لتخفف عنها ضغط الحصار الاقتصادي العربي، وتبعث بجنود «الكوماندوس» ليدربوا في إسرائيل، وتصبح أرضها المنطلق المأمون لشبكات التجسس الإسرائيلي ... ومع هذا كله وما هو أكثر منه، ومع ما تقوم به هذه الدولة من اضطهاد وتنكيل للأكثرية المسلمة التي تزعمها أقلية. وهو اضطهاد همجي لا نظير له

على وجه المعمورة اليوم ... مع كل هذا ورغم هذا لا تزال هذه الدولة صديقة لكثير من دول العرب. ولا يزال إمبراطورها صديقًا لبعض حكام العرب، ولا زال يدعى إلى العواصم العربية فيقابل بالحفاوة والترحاب اللائقين بجلالته الإمبراطورية، وبالصداقة العربية الأثيوبية، دون أدنى وفاء أو مجاملة للثوار العرب المسلمين المجاهدين في أرتيريا العربية المسلمة التي تقاتل وحدها (منذ سنة 1961) ولا تجد من حكوماتنا عونًا ولا نصيرًا. ثم بعد ذلك نزعم أننا عرب، وأننا أيضًا مسلمون!

فمتى نعرف عدونا من صديقنا؟ لقد قال العرب قديمًا: «صديق عدوك عدوك» وقال الشاعر:

جزي الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

ولكن الشدائد القاهرة التي مرت بنا لم تكفنا لنتعلم منها، ولنعرف من عدونا؟ ومن صديقنا؟

إن الشعوب الإسلامية كلها صديقتنا في قضيتنا. أستغفر الله، بل هي أمتنا التي لها ننتمي وإليها نوجه الحديث. إن قضية فلسطين هي قضية المسلمين على وجه عام، وقضية العرب على وجه خاص، وقضية الفلسطينيين على وجه أخص، والذي يريد قصر قضية فلسطين على العرب بحكم القومية العربية كالذي يريد قصرها على الفلسطينيين - بحكم الوطنية الإقليمية - وقديمًا سئل رئيس وزراء مصري عن قضية فلسطين فقال بصراحة: أنا رئيس وزراء مصر لا رئيس وزراء فلسطين ...

ومن غرائب التفكير في قضية فلسطين إصرار بعض الناس على جعلها

قضية عربية لا تهم إلا العرب وحدهم، وليس من حق المسلمين - في زعمهم - أن يتخذوا منها موقفًا إيجابيًا، وأن يقولوا: إن القضية تعنينا أيضًا، وكتب بعض الصحفيين في ذلك كلامًا لا يستحق أن يسمع فضلًا أن يعاد.

ولا أدري بأي منطق هؤلاء يتكلمون؟ وكيف غضبوا لأن باكستان وتركيا أو غيرهما غضبت لعدوان اليهود. قالوا: إن المسجد الأقصى حرم لنا وفلسطين جزء من وطننا الإسلامي.

فيا عجب كل العجب ... إن جميع اليهود في الدنيا القديمة والجديدة يعتبرون إسرائيل دولتهم، ويعدون قضية الصهيونية قضيتهم، ويبذلون لها من أموالهم وأنفسهم ما يبخل به كثيرون من قومنا، وهم مع ذلك، جنسيات مختلفة وعناصر متباينة تعيش في أوطان متباعدة، بين الشرق والغرب، لا يجمعهم جامع إلا الديانة اليهودية، ولم يتهمهم أحد بأنهم رجعيون متخلفون يفكرون بعقلية دينية، ويتجمعون على أساس الرابطة الدينية.

فلماذا يراد للمسلمين وحدهم أن يعزلوا أنفسهم عن قضية إخوانهم في فلسطين؟ وبأي حق تحرم مسلمًا باكستانيًا أو صوماليًا أو إندونيسيًا يعتقد أن العرب إخوانه، وأن المسجد الأقصى ثالث حرميه، من المشاركة في الجهاد لأجل اعتقاده، بدعوى أن قضية فلسطين عربية قحطانية؟

ولقد رأيت بعيني رأسي المسلمين في تركيا عقب النكبة الأخيرة، رأيتهم يتحرقون شوقًا إلى الجهاد لنصرة إخوانهم المسلمين العرب والانتقام من أعداء الله اليهود. وهذا برغم ما يبذره الاستعمار بين الأشقاء المسلمين من بذور الشك وسوء التفاهم.

إسلامية القضية ضرورة للتعبئة:

ومن ضرورة التعبئة الإيمانية والفكرية: أن نربط قضية فلسطين بأصلها الأصيل وهو الإسلام كما هو الواقع، وننقلها من الإطار الوطني أو القومي الضيق إلى الإطار الإسلامي الرحب.

وربما يظن بعض المتعلمين أن مما يضر بقضيتنا أمام دول العالم المتحضر أن نصبغها بالصبغة الإسلامية. فإن العالم اليوم لم يعد يسمع لنغمة الدين أو يطرب لها. وسيرمينا حينئذ بأننا قوم رجعيون متخلفون، فلنكتف إذن بجعلها قضية عربية.

ومن سوء حظ الذين يقولون هذا الكلام أن إسرائيل إنما تقوم على الأسس الدينية، أو على الأقل تقيم لها الاعتبار الأول في دعايتها الخارجية، وفي تعبئتها الداخلية.

يقول «حايم وإيزمان» في مذكراته (ص17):

«ولقد قابلت لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا؟ وقلت لبلفور: إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي».

قال هذا وإيزمان ولم يتهمه أحد في العالم المتحضر بالرجعية ولا التعصب.

ولقد جربنا أكثر من عشرين سنة ونحن نسكب في مسامع العالم المتحضر

أن فلسطين أرض عربية اغتصبها الاستعمار والصهيونية فهل أغني ذلك عنا شيئًا؟ وهل وجدنا من يسمع لنا؟ أو يتحمس لنصرتنا؟ كلا.

والسر في ذلك ما قاله السيد عبد الله التل:

«سيظل الغرب المستعمر يهزأ بنا ويسخر منا ما دمنا نعالج مشكلة فلسطين، على أساس أنها أرض عربية اغتصبها الاستعمار والصهيونية، ذلك لأن منطقنا هذا لا تقبله شعوب أمريكا التي تكونت من الطلائع الأولى للاستعمار والاغتصاب في العالم، وعاشت حياتها كلها تستحل مال سواها، وتغتصب أملاك غيرها من الشعوب الضعيفة. وحجتنا هذه لا تقنع شعوب أوروبا التي عاشت - ولا تزال تعيش - على حساب غيرها، وتشارك شعوب أمريكا في تمجيدها للاستعمار، فشعوب أوروبا وأمريكا لا ترى أي جرم في أن يحتل اليهود المتمدنون «!!» بلاد العرب المتوحشين ولا ترى غضاضة في أن يبيد اليهود عرب فلسطين، كما أباد الأمريكان الهنود الحمر. وحينما نغير الخطة ونوجه سير المعركة وجهة أخرى، ونعلن أن فلسطين ليست أرضًا عربية فحسب، وإنما هي ملك (700) مليون مسلم يفتدونها بالأرواح والمهج، لأنها أرض مقدسة، تربطهم بها روابط دينية وتاريخية، أقوى من رابطة بضعة ملايين من اليهود بفلسطين، عندها ترجح كفتنا، ويصبح زمام الأمر بأيدينا»[31].

ولكن هذا يقتضي منا أن نعلن ونحتضن «إسلامية» القضية لا مجرد عروبتها. وقبل إسلامية القضية لا بد أن نعلن ونتبنى إسلامية المجتمع

(31) من كتاب «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية».

والحكم والفكر لا قوميته واشتراكيته أو ليبراليته، ولا بد أن ندعو ونعمل لتحقيق «التحول الإسلامي» للمجتمع بدلا من «التحول الاشتراكي» وغيره من المفاهيم والشعارات.

وبغير هذا لن نجد «المسلمين» الذين ينتصرون لقضيتنا التي هي في نظر الإسلام قضيتهم. إذ الإسلام يجعل كل شبر في الأرض الإسلامية وطنًا للمسلم يفديه بالنفس والنفيس.

ومن هنا يتضح لنا مدى الارتباط والتلازم بين قضية فلسطين وقضية الإسلام نفسه. إن قضية فلسطين لا تنفصل أبدًا عن قضية الإسلام الكبرى، باعتباره فكرة وعقيدة ومنهج حياة ورابطة تجمع، وشريعة تحكم المجتمع بهداية الله. فلولا ضعف الإسلام في نفوس أهله وفي حياتهم، وفي حكوماتهم العلمانية المختلفة ما استطاعت الصهيونية أن تجد لها وطنًا في قلب دار الإسلام.

ويوم تعالج قضية الإسلام نفسها، ستعالج معها - حتمًا - قضية فلسطين وكل قضايانا المعلقة.

ويوم يسود الإسلام بعقيدته وشريعته وأخلاقه ومفاهيمه، ومشاعره وشعائره، وآدابه وتقاليده، وتتجسد هذه كلها في مجتمع مهما يكن صغيرًا في حجمه وفي رقعة أرضه، وفي حكم يقود هذا المجتمع باسم الله ... يومئذ لا تستطيع إسرائيل أن تبقي ولا أن تعيش.

فإذا كان أبناء فلسطين، وإذا كان العرب، وإذا كان المسلمون حريصين على تحرير فلسطين وطرد أعداء الله وأعدائهم من أرضها، فليحرروا أنفسهم

أولًا من العبودية لغير الله، ومن أتباع غير هداه، وليصمموا صادقين على العودة إلى الإسلام. فهذا هو أضمن طريق - وإن كان أشق طريق - لاستنقاذ فلسطين.

وإذا كانت قضية الإسلام ذاته لا تستحق أن تحظى بتفكيرهم ولا اهتمامهم ولا جهادهم، وكانت العقيدة أهون عندهم من الأرض، والشريعة أرخص من التراب، فهيهات أن يتنزل عليهم نصر الله الذي وعد به المؤمنين.

لقد قال «هرتزل» في المؤتمر الصهيوني الأول لزعماء قومه: «إن عودتنا إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية»!

وإذا كان المؤمن ينتفع بالحكمة ولو من فم عدوه فعلينا أن نقول لقومنا: إن عودتنا إلى فلسطين يجب أن تسبقها عودة إلى الإسلام.

* * *

أمران ... لابد منهما

هذه التعبئة التي نطلبها ونحرص عليها وننادي بها تحتاج إلى أمرين لا غني عنهما، ولا تتحقق إلا بهما.

1 - المناخ السياسي:

الأمر الأول ... هو المناخ السياسي الذي يتيح لهذه التعبئة المتكاملة أن تؤتي أكلها، وأن تبلغ غايتها، وأن تحقق أهدافها.

والمناخ الذي نقصده هو الذي يهيئ لجماهير الأمة أن تنشق أنسام الحرية، وأن تخط مصيرها بيدها، وأن تملك حق الولاية والعزل، وأن تقول للمحسن: أحسنت، وللمسيء: أسأت.

المناخ الذي نقصده هو الذي يجعل جيش الأمة لحرب أعدائها، لا لإرهاب أبنائها، ويجعل مخابراته للتجسس على عورات العدو لا لتتبع أفراد الشعب وإرهابهم بالحرب النفسية وغسيل المخ ... ويجعل أكبر همه المحافظة على سيادة الشعب لا على سيادة شخص أو أسرة أو حزب.

هذا هو المناخ الذي نريده وهذا هو النظام الذي ننشده لا ذلك الذي يخنق أنفاس الشعب باسم الشعب ... ويزهق روح الحرية باسم الحرية.

وهذا يقتضي أن يكون لدينا قدر من الشجاعة لننادي بوجوب تغيير سياسي في المنطقة العربية لا أن نربت على كتف «صناع» الهزيمة، وندللهم كما تدلل الأم وليدها الوحيد، ونرخي لهم العنان ليعبثوا بمقدرات الأمة ومصايرها ويجروها إلى نكبات ونكسات أخر، بدل أن نأخذ على أيديهم، ونصرخ في

وجوههم: قفوا مكانكم: **{وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ}** [يس: 59]، المجرمون الذين يلبسون لبوس الأبطال المنقذين.

لابد من تغيير سياسي في المنطقة العربية. تغيير جوهري لا عرضي ... تغيير حقيقي لا صوري، تغيير في نفس الرواية الممثلة لا في الوجوه والأدوار فحسب. تغيير يصحح الأوضاع المنحرفة، ويقوم الأنظمة العوجاء، ويقيم الحكم على العدل والأخوة والشورى، وهي الركائز التي أراد الله أن يقوم عليها بناء الدولة في الإسلام.

ثم لابد من تغيير سياسي تتفرغ معه الجيوش للحرب والجهاد لا للسياسة وإدارة الشركات.

فالأمة لم تنفق مئات الملايين على جيوشها تدريبًا وتسليحًا لتحترف السياسة بل لتحترف القتال.

ومن الظلم الصارخ - وهو أيضًا من العبث - أن يكلف بضعة مئات أو آلاف من أبنائنا وإخواننا الفدائيين عبء مقاتلة إسرائيل بحصونها وطيرانها ودباباتها وقواتها النظامية المجهزة بأحدث سلاح، على حين تظل جيوشنا المكونة من مئات الألوف تستنزف كل عام الأموال الضخمة من مواردنا وأقوات شعبنا، ودون أن تقدم شيئًا غير الاستعراضات العسكرية في المناسبات الوطنية والثورية!!

هذا هو النظام الذي نطالب به ونؤمن بضرورته، وخاصة في هذه المرحلة من تاريخنا، وأول سماته أن يرفع هذا الشعار ويتبناه: «الجيش للحرب والجهاد لا للسياسة، الجيش لقهر العدو لا لقهر الشعب».

وثاني سماته: أن يحقق الحرية السياسية للشعب ... حرية الحقوق لا حرية الفسوق. الحرية التي تحمي الحرمات لا التي تغذي الشهوات. الحرية التي تجرئ الفرد العادي من الناس أن يقول لصاحب السلطان: والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا ... فلا يعتقل بعدها ولا يسجن ولا تجره الزبانية إلى ساحة التعذيب، ليقر ويعترف ... من أوحي إليه بهذه الكلمة؟ ومن من الناس يوافقه عليها؟ وماذا ينوي أن يصنع بعدها؟ وأين يخزن السيوف التي سيقوم بها عوج السلطان؟

أجل ... إن أخص ما يميز هذا النظام المنشود أن يرفع السياط عن ظهور الشعب، ويرفع سيف الإرهاب عن رقابه. ويشيع في الناس جوًا من الحرية والأمن تستطيع معه القلوب أن تخفق، والعقول أن تفكر، والألسنة والأقلام أن تعبر وتقول للظالم: يا ظالم، وللضارب: كف يدك، واتق الله - دون أن يتخطفها «كلاب الصيد» إلى المعتقلات والسجون، بعد محاكمات هزلية ببناتها: السوط والنار والجليد، أو بغير محاكمة أصلًا.

لابد من تغيير سياسي ينتزع السلطة من أيدي الطغاة المستبدين، ويردها إلى الأمة لتختار لنفسها القوي الأمين، الذي يسخر طاقته لإرادة الأمة لا الذي يسخر طاقات الأمة لإرادته، لتختار الذي يجعل هواه في خدمة الشعب لا الذي يجعل الشعب في خدمة هواه. القوي الأمين، الذي يرحب بالنقد، ويعترف بالخطأ، ويقول ما قاله ابن الخطاب على المنبر: «رحم الله امرءًا أهدي إلى عيوب نفسي». ويجرئ الشعب على نقده فيقول: «الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بحد سيفه» ...

وحين قال له رجل: اتق الله يا عمر ... فنهره بعض من سمعه، قال عمر:

«لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها».

فإن شر ما تصاب به الأمم هو ذلك الصنف من الحكام الفجرة العتاة، الذين يحطمون كل قوة إيجابية في شعوبهم، ليسلس لهم قيادها، ويسلم لهم حكمها بلا معارضة ولا إنكار.

هؤلاء هم الذين يقربون «ساعة» الأمم، ويدنونها من يوم هلاكها وخرابها، ولكل أمة «ساعة» تأتي بإتيان أسبابها.

وقد جاء في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة**» قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**».

وكان أول ما قرب ساعة الشعب العربي هو هذا الطراز من طغاة الحكام الذين لا يعبدون إلا مناصبهم، فلا يرعون لله عهدًا ولا حرمة، ولا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

هؤلاء الحكام الطغاة الذين يحسبون الشعوب قطعانًا تساق، هم الصناع المهرة للهزائم الكبرى، وهم أكبر مورد لنكبات والنكسات، في حياة أمتنا.

وهم الحلفاء الأوفياء للصهيونية العالمية، الأمناء على تنفيذ مخططاتها وترجمتها من أحلام إلى واقع، ومن نبوءات إلى حقائق.

إي وربي ...

إن هؤلاء الحكام الذين يدعون الإخلاص والوطنية هم أكبر عون للصهيونية وأعظم أدوات لتحقيق أهدافها، أرادوا أو لم يريدوا.

إن الصهيونية العالمية لو حكمت بنفسها بلاد العرب، أو استأجرت أناسًا ببلايين الدولارات ليفسدوا لها أمة العرب، ويدمروا مقوماتها وخصائصها ومعنوياتها ما استطاعت أن تنجز معشار ما يصنعه هؤلاء الحكام بشعوبهم.

لقد جرد هؤلاء الحكام هذه الشعوب من كل أسلحة القوة ومن كل معاني المقاومة.

لقد أذلوا كرامتها، وأهدروا آدميتها، وسلطوا عليها سيف الإرهاب، وسوط العذاب، حتى سكتت على الضيم، وأغضت العين على القذى، وجرت الذيل على الهوان.

لقد خنقوا كل فكر حر، وكسروا كل قلم حر، وأخرسوا كل صوت حر، ولم يسمحوا بالعيش والظهور إلا لحملة القماقم، ومحرقي البخور، بين أيدي الظلمة المستبدين.

لقد غلت في عهدهم المعيشة ورخص الإنسان، وعمرت المراقص وخربت المساجد، وضيق الخناق على الأفكار، وأطلق العنان للشهوات، وأكرم أهل النفاق، وأهين أهل الإيمان.

أولئك هم الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار.

لقد أحسن الشاعر «نزار قباني» حين صور هؤلاء الطغاة وموقفهم من الحريات ومن الشعوب، فقال:

«لو أحد يمنحني الأمان

لو كنت أستطيع أن أقابل السلطان

قلت له: يا سيدي السلطان

كلابك المفترسات مزقت ردائي.

ومخبروك دائما ورائي.

عيونهم ورائي ....

أنوفهم ورائي ...

أقدامهم ورائي ...

كالقدر المحتوم، كالقضاء ...

يستجوبون زوجتي ...

ويكتبون عندهم أسماء أصدقائي ...

يا حضرة السلطان

لأنني اقتربت من أسوارك الصماء

لأنني ...

حاولت أن أكشف عن حزني وعن بلائي ...

ضربت بالحذاء ...

أرغمني جندك أن آكل من حذائي ...

يا سيدي ...

يا سيدي السلطان ...

لقد خسرت الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا

ليس له لسان ...

ما قيمة الشعب الذي

ليس له لسان؟

لأن نصف شعبنا

محاصر كالنمل والجرذان

في داخل الجدران ...

لو أحد يمنحني الأمان

من عسكر السلطان

قلت له:

لقد خسرت الحرب مرتين

لأنك انفصلت عن قضية الإنسان» ...

فإذا كنا نريد لأمتنا أن تنتصر، وكنا نريد من أمتنا أن تجاهد، فنزح من طريقها هذه الحجارة التي تعوق سيرها. هذا الإرهاب الحاكم الذي يفعل بأنفس الأمة ما تفعله الأمراض الفتاكة بأجسامها.

إن الجهاد لا يقوم إلا على الرجال، والرجال لا ينشئون إلا في ظلال الحرية، أما تلك الأنظمة البوليسية المتجبرة على خلق الله، فلن تخلق إلا شعبًا

من العبيد. والعبيد إنما يحسنون فن الخدمة والطاعة ولكن لا يحسنون فن البطولة وصناعة الموت.

ولقد روت كتب الأدب أن عنترة العبسي كان - لسواد لونه - غير محظي عند أبيه، وكان يعامله معاملة العبيد، كل مهمته أن يرعى الجمال ويحلب النوق، فلما أغارت يومًا إحدى القبائل على عبس، وكاد المغيرون ينتصرون، وعنترة يقف موقف المتفرج، كأن الأمر لا يهمه - قال له أبوه: كر - يريد منه أن يشترك في الذود عن القبيلة - فقال له عنترة: العبد لا يحسن الكر، وإنما يحسن الحلاب والصر ... فقال الأب: كر وأنت حر.

وهنا ظهرت بطولة العبسي الأسود راعي الإبل وحالب النوق، فقلبت موازين القوي، وردت المغيرين على أعقابهم مخذولين. وكان ذلك بتأثير الشعور بنعمة الحرية: «كر وأنت حر».

2 - لابد من صلاح الدين:

والأمر الثاني الذي لابد منه لتحقق التعبئة المنشودة غايتها المرجوة هو القائد.

فبدون هذا القائد سيظل هناك سؤال يدور على الشفاة، ويجول في الخواطر، ولا يجد الجواب.

يقول هذا السؤال: لقد دعوت إلى الجهاد ودعوت إلى التعبئة من أجله، فمن الذي يستنفر الأمة لهذا الجهاد، ويجمعها عليه، ويعدها للقيام بأعبائه، ويجند طاقاتها المادية والمعنوية لخدمته؟

إن الذي يقوم بهذا في نظر الشريعة الإسلامية هو «الخليفة» أو «الإمام»

الذي يخلف رسول صلى الله عليه وسلم في قيادة الأمة الإسلامية ماديًا وروحيًا. فهو إمامها في الصلاة، وأميرها في الحج، وقائدها في الحرب، ورائدها في السياسة.

إن نصب هذا الخليفة ليس نافلة في الإسلام، بل هو فريضة من فرائضه، والأمة مسئولة بالتضامن عن إيجاده، والمسلمون آثمون إذا عاشوا بغير خليفة، يجمع شتاتهم ويقود سفينتهم، بشريعة ربهم. وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من لقي الله وليس في عنقه بيعة لإمام مات ميتة جاهلية**»(32).

ولقد عرفت الصهيونية الماكرة قيمة الخلافة - على ما كان بها من علل وعيوب - في تجميع المسلمين عند الشدائد والأزمات. فكادت ما وسعها الكيد لتحطيم هذه القلعة الإسلامية العتيدة، واستطاعت بذهبها ونفوذها ودهائها وأدواتها المبثوثة في كل مكان، وأجهزتها العلنية والخفية كالماسونية وما شابهها - أن تهدم الخلافة العثمانية التي رفض سلطانها أن يبيع شبرًا من فلسطين مهما أغراه اليهود بعشرات الملايين وتقديم المساعدات والخبرات، لشخصه ولدولته.

وهكذا هدمت هذه القلعة الإسلامية، وتمزقت البلاد التي كانت تضمها تحت رايتها، وأصبحت نهبًا للمستعمرين الذين قاتل العرب معهم ضد إخوانهم الأتراك المسلمين.

وترك تحطيم الخلافة «فراغًا» في العالم الإسلامي، لا زلنا نشعر به

---

(32) رواه مسلم.

ونعاني آثاره إلى اليوم.

والآن وبعد أن هدمت الخلافة بكيد الصهيونيين ومساعدة العلمانيين يبقي السؤال حائرًا ... من الذي يعبئ الأمة للجهاد ويعدها ليوم اللقاء؟

هنا تشرئب الأعناق، وتهفو القلوب، وتتطلع الأنظار إلى القيادة المؤمنة التي تقود الأمة إلى «حطين» ثانية، ترد الكرامة الضائعة، والحق المسلوب، والوطن المنهوب ... لابد إذن من «صلاح الدين».

وما صلاح الدين؟

إنه ليس البطل «الأسطوري» الذي يحمل في أصبعه خاتم سليمان. ولكن «صلاح الدين» يعني الحاكم المسلم الذي يلتزم بمنهج الإسلام، وأحكام الإسلام، وأخلاق الإسلام.

إنه الحاكم الذي يجعل أكبر همه، وشغل فكره وقلبه، هو نصرة الإسلام، وتحرير أرضه واسترداد كرامته، ورفع رايته في الآفاق إنه القائد الذي يجند طاقات الأمة كلها للجهاد: المادية والبشرية، ويكون هو بخلقه وسلوكه قدوة لأمته في الزهد والتواضع والتقوى والإخلاص لله، وإيثار الآخرة والإعراض عن زخارف الدنيا.

إنه الحاكم الذي لا يضيع درهمًا من مال ولا ساعة من زمن، ولا قليلًا من طاقة في غير خدمة المعركة المقدسة، وما تتطلبه من تعبئة وإعداد، إنه لا ينفق الجهود والأموال في الدعاية لشخصه، ولا في التجسس على شعبه، ولا في تصفية معارضيه، والغدر بكل من يراه خطرًا عليه، ولو كان أقرب الناس إليه.

إنه الحاكم الذي يوالي من والي المسلمين، ويعادي من عادي المسلمين، ولا يواد يومًا من حاد الله ورسوله. ولو كان أباه أو أبنه أو أخاه.

إنه ليس بطلًا وطنيًا ولا قوميًا، ولكنه بطل إسلامي، لا ينتمي إلا إلى الإسلام وأمة الإسلام ... وقد كان «صلاح الدين» الأول رجلا كردي الجنس والأصل، ولكنه الذي اختارته الأقدار، لينقذ القدس وفلسطين، وينقذ معها كرامة العرب والإسلام. ومن يدري لعل «صلاح الدين» المنتظر يجئ من باكستان أو تركيا أو نيجيريا أو الصومال ... إن «صلاح الدين» الذي ننتظره ليس «ملكًا» يهبط من السماء، في غسق الليل، ولكنه «رجل» يخرج من الأرض في وضح النهار.

وسيخرج حين يتهيأ المجتمع لمثله، ويصبح أهلًا لظهوره، وتقوى فيه إرادة العودة إلى الإسلام «وكما تكونوا يول عليكم» إن بطولة هذا القائد، وشجاعة هذا الحاكم المنتظر، تتجلي أول ما تتجلى في التمرد على أصنام الحضارة الغربية ورفض الخضوع لمفاهيمها وقيمها، والتصميم الحاسم على الرجوع إلى الإسلام ... كل الإسلام.

- مسئولية الفكر:

ولكن أليس هذا هو الطريق المسدود؟ وهو «الدور» الذي يصفه علماء المنطق؟ الطريق إلى الخلاص هو الجهاد، والجهاد يقتضي التغيير والتعبئة للأمة، والتغيير والتعبئة يحتاجان إلى القيادة المؤمنة، والقيادة لا تظهر إلا في أمة تستحقها ... فكيف التخلص من هذا «الدور»؟ الأمة تحتاج إلى قيادة والقيادة تحتاج إلى أمة؟

والحق أنه لا دور ولا تناقض، فظهور القائد المنشود والحاكم المرتقب يحتاج إلى أرض حرة يرتكز عليها، وإلى كتلة قوية تشد أزره، وإلى تيار فكري ينادي به ويشعر الأمة بضرورة وجوده.

وهنا تبرز مسئولية الفكر ورجال الفكر ودورهم في إعداد الأمة وتعبئتها وتهيئتها للمرحلة الحاسمة، مرحلة العودة إلى الإسلام، بعد التخلي عن الإسلام، ومرحلة العودة إلى الإسلام هي التي نترجم عنها بظهور «صلاح الدين» المرتقب.

- غفلة هنا وتفكير هناك:

ألا ليتنا نفكر بعمق كما يفكر عدونا الذي حدد هدفه ووعاه من أول يوم، وحدد له وسائله، وخطط له مراحله، ودرس العقبات التي تواجهه، وكيف يتغلب عليها. والعوامل التي تساعده وكيف يستفيد منها.

لقد كان يعلم أنه كان يريد شيئًا خطيرًا، وهدفًا كبيرًا، فكان يفكر على مستوي غايته وهدفه.

كان يعلم أن الشعب اليهودي قد قطعه الله في الأرض أممًا، ولم يعد بين أبنائه رابطة لغوية ولا جنسية، ولا وطنية، فقد توزعوا بين مختلف اللغات والأجناس والأوطان. ولم يبق لهم جامع يوحد بينهم، ويربط بين قلوبهم إلا الدين اليهودي، فلابد إذن من إحياء الدين في نفوسهم ليكون هو الأساس الذي يتجمعون عليه، والباعث الذي يحفزهم إلى تحقيق الهدف، والهدف نفسه هدف ديني، كما علمنا ... وهذا معني قول الصهيوني هرتزل: «إن عودتنا إلى صهيون يجب أن تسبقها عودة إلى اليهودية».

وكـان العـدو المـاكر يعلـم أنـه يتصـدى لمقاومـة أمـة أساسـها الـدين، وإذا تحركت يومًا باسم الدين وتحت رايته فلن تصدها قوة في الأرض. فكان عليه أن يوجه عملاءه وتلاميذه، وقواه المستورة والظاهرة لتعمل معاول الهدم في ذلك الأساس المكين وتحول بين المسلمين وبين عودتهم إليه.

وهكذا بدأ العدو الصهيوني يعمل وفق مخططه في ميدانين، ميدان سلبي: هو تخريب كياننا، وتمزيق أمتنا.

وميدان إيجابي: هو بناء نفسه ماديًا وأدبيًا، بناء يمكنه من تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة، رغم ضعف إمكاناته البشرية من حيث العدد، وسوء وضعه الجغرافي والاستراتيجي من حيث الامتداد والعمق. ورغم الحصار الاقتصادي الذي كان يتوقع أن يضرب عليه.

فماذا كان موقفنا من القضية؟

إنه الذهول والغفلة حتى وقعت الكارثة وحلت النكبة في 1948

وبعد النكبة الأولى أصبحت قضية فلسطين سلعة للمساومة في سوق السياسة العربية وفي سوق الفكر أيضًا، كل زعيم أو رئيس يريد أن يتاجر بها ويكسب من ورائها حتى وقعت النكبة الثانية سنة 1967 وكل أصحاب مذهب يريدون أن يستخدموا القضية للكسب المذهبي كذلك. والمخلصون يحاولون الإنقاذ. ولكن معظمها محاولات انتحارية أو ارتجالية. إن الذي نريده اليوم أن يحتل الفكر دوره في القضية بدلًا من الارتجال والانتحار أو الغوغائية، و«الديماجوجية» السياسية، أو استغلالها لخدمة مبادئ دخيلة على الأمة، لا تجني من ورائها غير الخراب.

● الفكر الذي ننشده:

والفكر الذي نريده هو الفكر الحر، الفكر الأصيل، الفكر الشجاع، الفكر الواقعي، وهذه الأوصاف كلها وإن بدت مختلفة هي في الحقيقة صفة واحدة للفكر الحق الذي لا يستحق اسم الفكر غيره. إلا من باب المشاكلة، أو التجوز. وأعني بالفكر الحر:

ذلك الفكر الذي لا يقبل الرق ولا يرضي أن يباع في سوق المساومات، ولا أن يشتري بمال وإن كان ملء الأرض ذهبًا. الفكر الحر هو الذي يأبى الانحياز والتبعية لحاكم أو حزب أو جهة أو معسكر، ويأبى أن يعمل إلا لنفسه ووفق ما ينتهي إليه هو من مقررات، ولا ينقاد إلا لما يؤمن به، لا يغريه الوعد ولا يثنيه الوعيد.

أما الفكر الذي عبد نفسه لسلطان الحكم أو لحكم السلطان، ووقف نتاجه على الإطراء والتسبيح بحمد زيد أو عمرو، فليس فكرًا حرًا، وليس أهلًا لأن يسمى فكرًا.

وآية الفكر الحر أن يكون فكرًا أصيلًا.

وأعني بالفكر الأصيل أن يكون نابعًا من تربتنا ومن ضمير أمتنا. لا دخيلًا عليها، ولا أجنبيًا منها، فإن تسول الأفكار من هنا وهناك لا تثري به أمة. وكل فكر غريب عن روح الأمة وعقائدها وتراثها أشبه بالدم الغريب الذي ينقل من جسم قوي إلى جسم ضعيف مخالف له في فصيلة الدم. إن هذا الدم المخالف لا يكسب الجسم الضعيف قوة ولا حياة. وإنما يفضى به إلى موت محقق.

لست أدعو إلى إغلاق النوافذ الفكرية بيننا وبين العالم من حولنا، وإنما أريد أن نتخير من الأفكار ما يلائم طبيعتنا، ويتفق ومواريثنا، وينسجم وشخصيتنا دون أن نتحيز لفكر على آخر، ودون أن نفقد أصالتنا وإبداعنا، أريد أن نقف من كل فكر أجنبي موقف الأحرار لا موقف العبيد، وموقف الأغنياء لا موقف الشحاذين.

إننا أمة ذات أهداف وذات رسالة وذات تاريخ، ولا نسمح لأحد أن يسلبنا شخصيتنا ويملي علينا منهجه أو قواعده في التفكير، فنحن لم نخلق لنجر من آذاننا ولا لنقول للمخلوقين أيا كانوا: سمعنا وأطعنا ... إننا لا نستطيع أن نحرر أرضنا إذا لم نحرر نحن أنفسنا وأفكارنا. ومن المثير حقًا أننا نحارب اليهود، ومع هذا نجد من بيننا من يتتلمذون على أفكار اليهود في الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية، ولا داعي لذكر الأسماء فهي معروفة[33].

على أن الضروري لنا - وخاصة في هذه المرحلة من تاريخنا - أن نوحد مصادر الإلهام لتفكيرنا، فإن وحدة الفكر شرط أساسي للنجاح في أي ميدان، والظفر في أي معركة. وتعدد مصادر الإلهام لن يجعلنا أمة واحدة، بل أممًا شتى لكل منها غايته واتجاهه ومنهاجه، وفقًا لنوع المصادر المستوحاة: **{وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ}** [الأنعام: 153].

وأعني بالفكر الشجاع ذلك الذي لا يهوله ضخامة الأصنام، وإن أحيطت

---

(33) إن تلاميذ «فرويد» و«ماركس» و«دور كايم» في الوطن العربي ليسوا بالقليل. وهؤلاء الثلاثة كلهم يهود وقد قام كل منهم بدور خطير في تحطيم القيم العليا للمجتمع في جانب من الجوانب ... «فرويد» في مجال النفس، و«ماركس» في الاقتصاد، و«دور كايم» في الاجتماع.

بهالات التقديس والتعظيم، وكثر حولها السدنة الطائفون والمتمسحون، ولا يتردد في حمل المعول لهدمها، وتعريتها مما أحاط بها من زيف وأساطير، لا يخاف سطوة المنتفعين الخادعين، ولا غضبة الدهماء المخدوعين.

الفكر الشجاع ذلك الذي يتقبل كل نقد نزيه، بل ينقذ نفسه بنفسه ولا يستنكف من الاعتراف بالخطأ إذا تبين له - موقنًا أن العصمة لله وحده - وأن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

الفكر الشجاع هو الذي لا يداهن ولا يتملق ولا يرائي، ولا يجعل كل همه أن يثير ويعجب بل أن يبين ويكشف. الفكر الشجاع هو الذي لا يتأثر بدوي الطبول وصيحات المعجبين أو الناقمين، ولكنه ينظر إلى الأمور بحيدة وإنصاف - حسب الطاقة البشرية - محاولًا النفاذ إلى ما وراء المظاهر، ليلمس الأغوار ويدرك الأسرار، ويكشف الأستار.

وأعني بالفكر الواقعي الفكر الذي يعرف طبيعة الأمة ومقومات شخصيتها الأصيلة، وينفذ من وراء المظاهر السطحية إلى أعماق روحها المستمدة من عقيدتها وتاريخها وتراثها، ويبني حكمه على أساس هذا الواقع الملموس. إن الفكر الذي يتجاهل واقع الأمة ويبني في الهواء فكر مخرب ضار.

فإذن إن الدين في أمة كأمتنا هو المقوم الأول لشخصيتها، والمحور الأول لتفكيرها، والموجه الأول لمشاعرها، فالمفكر الأصيل هو الذي يتفاعل وهذا الواقع ويستخدمه لكسب المعركة مع العدو أو مع الطبيعة أو مع الظروف.

لست في مقام الذي يقيم الأدلة على صحة العقيدة التي تؤمن بها الأمة، إنما الذي يهمني هو استغلال طاقات الأمة كلها في معركتها الكبرى، والطاقة

الروحية لا يستطيع مكابر أن يجحد قوتها وتأثيرها وإيحاءها، والإيمان من غير شك أعظم مولد للطاقة الروحية، فكيف يجوز لمفكر أن يغفل هذه الطاقات المذخورة في كيان الأمة، ويتجاهل إيمانها بربها ودينها، لا لشيء إلا ليصفه بعض الناس بأن فكره «عصري».

إن الإيمان بالله وبرسالاته وبالدار الآخرة، واقع محس يعيشه أبناء الأمة، ويكيفون تفكيرهم ورغباتهم وسلوكهم وفقًا له، حسبما أوتوا من قوة الإرادة وحسن التربية، ولابد من النزول على حكم هذا الواقع. ومخاطبة الأمة بمنطقة، وتوجيهها بمقتضاه واستخرج قواها المذخورة بسلطانه.

يقول الدكتور «جوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب»[34]:

«تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، أجل، قد تجد بين المسلمين عددًا قليلًا من الزنادقة والأخلياء، ولكنك لن ترى من يجرؤ على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة في المساجد وصوم رمضان الذي يراعي جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما في هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها في صوم الأربعين الذي يقوم به النصارى، كما شاهدت ذلك في جميع الأقطار الإسلامية التي زرتها في آسيا وإفريقية، ومن ذلك أن أتيح لي أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مقرنين في الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حتى رأيتهم، وهم الذين خرقوا حرمة جميع

(34) (ص417، 418)

القوانين الاجتماعية مستخفين بأقصى العقوبات، لم يجرءوا على انتهاك تعاليم النبي، وحين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله الواحد القهار ويعبدوه.

وعلى من يرغب فهم حقيقة أمم الشرق - التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلًا - أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، وللدين في التأثير الضئيل فينا نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يؤثر في نفوسهم، ولولا الدين ما حرك ساكن المصريين منذ الثورة الحديثة التي ضرجت مصر بالدماء.

وإن الرجل الذي يخاطب العرب باسم الله يطاع لا محالة، ما علموا أنه يتكلم باسم الله حقًا، فعلى الراصد المؤمن أو الملحد أن يحترم هذا الإيمان العميق الذي استطاع العرب أن يفتحوا العالم به فيما مضى، وهم اليوم يصبرون به على قسوة الصبر».

هذا رأي فيلسوف محايد، ومراقب أجنبي، في طبيعة هذه الأمة، وتأثير الدين فيها، فمن أراد أن يستثير البطولة في أعماقها، وأن يستخرج منها أقصى مكنوناتها وذخائرها، فليخاطبها باسم الله، وليقدها بزمام الإيمان، وتحت راية التوحيد.

هنالك تصنع العجائب، وتأتي بالمعجزات، وتعيد تاريخها الأول من جديد!

* * *

حتمية الحل الإسلامي

أحسب أننا - بعد تلك الصحائف - قد استبنا معالم الطريق على طوله وكثرة الأشواك فيه، والمعوقات عنه. ولكنه وحده الطريق الموصل إلى الغاية التي حددناها في تحرير فلسطين كاملة، واستئصال العدوان من جذوره: العدوان الذي يتمثل في قيام إسرائيل ابتداء.

إن هذا الطريق، هو طريق واحد، طريق الجهاد في سبيل الله.

هذا الجهاد يستلزم تغييرًا جذريًا في حياة الأمة ووجهتها، كما يقتضي مناخًا سياسيًا ملائمًا تتوافر فيه الحرية للشعب، وتتفرغ معه الجيوش للحرب.

هذا الجهاد يقتضي أن تعبأ له الأمة تعبئة إيمانية وأخلاقية وفكرية، بجوار التعبئة المادية والعسكرية.

هذا الجهاد يستوجب قيادة تعد له وتدعو إليه، أو تجمع الأمة عليه، وتعبئها للقيام بأعبائه وهي قيادة «صلاح الدين» المنتظر.

«صلاح الدين» هو رمز الحكم الإسلامي الملتزم بما أنزل الله من الهدى والحق، وهو عنوان على القائد المسلم الذي يقف حياته على نصرة الإسلام وإعلاء كلمته وتنفيذ شريعته، لا يخشي في الله لومة لائم. هذا القائد الذي تحتم كل الظروف والملابسات ضرورة ظهوره، وتبشر كل الدلائل المختلفة بأن فجره على وشك أن يطلع. وقد أخبرنا رسولنا الذي لا ينطق عن الهوى بأن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها. وها هو رأس المائة الرابعة عشرة يوشك أن يطل علينا.

إنني إذا أردت أن ألخص وجهة نظري التي فصلتها في الصفحات السابقة في علاج هذه القضية وحل هذه المشكلة التي طال عليها الأمد، أمكنني أن ألخصها تلخيصًا عنوانيًا في كلمة واحدة هي: «حتمية الحل الإسلامي» للقضية - كما هو الحل الحتمي لقضايانا الكبرى - ولا حل غيره.

الحل الإسلامي معناه العودة إلى الإسلام في صورة مجتمع تتجلى فيه مقومات المجتمع المسلم بعقائده وتصوراته، ومفاهيمه ومشاعره، وعباداته وشعائره، وأخلاقه وآدابه، وأنظمته وشرائعه. فهو لا يهتدي إلا بهدى الإسلام، ولا يحتكم إلا إلى شريعة الإسلام، ولا ينتمي إلا إلى الإسلام وأمة الإسلام.

كما يتمثل في هذا المجتمع خصائص المنهج الإسلامي الذي يجمع بين الربانية والإنسانية، وبين الإيمان والعلم، وبين الروحية والمادية، أو الدين والدنيا. وبين الدين والدولة، وبين الفردية والجماعية، وبين الواقعية والمثالية، وبين الرقي الحضاري والسمو الأخلاقي.

إن هذه المقابلات التي يحسب أكثر الناس أن التقاءها في مجتمع واحد ضرب من المحال تلتقي في مجتمع الإسلام على أحسن صورة من التوازن والاتساق، بلا إفراط ولا تفريط. هذا هو معنى الحل الإسلامي الذي ننادي بضرورته، ونعتقد بحتميته.

فهو - قبل كل شيء - ضرورة دينية، وبدونه نتعرض لسخط الله وعذابه.

وهو ضرورة اجتماعية، لأنه المخرج الفذ من مشكلاتنا المزمنة، والعلاج الناجع لأمراضنا الأخلاقية، وقضايانا الاجتماعية الكبرى.

وهو - مع ذلك كله - ضرورة قومية وعسكرية في ظروفنا الراهنة، التي لا ينقذنا منها غير العودة إلى الإسلام.

- اعتراض مردود:

سيقول بعض الناس: إن معني «الحل الإسلامي» الذي تنادي بحتميته هو أن ننتظر إلى ما شاء الله من السنين والعقود، حتى يتحقق هذا الحل المنشود، فمما لا ينكر أن دون هذا الحل عقبات وعقبات، وهو أمر يحتمل التأخير والانتظار. أما قضية الوطن المغتصب فلا تنتظر، ولا تحتمل التأجيل والإمهال. والأولى بنا أن نعمل أولًا لتحرير الوطن السليب من غاصبيه، فإذا تم لنا ذلك، فكرنا في العودة إلى الإسلام الشامل النقي، وإقامة المجتمع المسلم السليم، يقوده حكم إسلامي صحيح.

ونحن نجيب عن هذا الكلام الواهي من وجوه:

أولًا: إن الحل الإسلامي ليس ضربًا من المحال، ولا تحليقًا في أجواء الخيال، إنما هو الحل الطبيعي الذي تنادي به كل ذرة في كيان هذه الأمة: عقيدتها وتقاليدها ومشاعرها وتراثها وتاريخها، وهو الشيء الوحيد الذي كانت تردده الجماهير بعد النكبة: أن لا علاج إلا بالعودة إلى الإسلام، والعقبات والمعوقات التي ندعي وجودها في سبيل الإسلام، إنما يرجع معظمها إلينا أنفسنا. فهي مما صنعت أيدينا. ولا ينقصنا إلا الإرادة، إرادة العودة إلى الإسلام. وإلا فما المعوقات وقد تحررت ديارنا من كابوس الاحتلال العسكري والحكم الاستعماري المباشر، ولم يعد للأجنبي الكافر سلطان عليها؟؟

إن العقبة الوحيدة في سبيل الحل الإسلامي الشامل تنحصر في طائفة من الحكام والمحترفين للسياسة والزعامة، ورثوا الحكم الاستعماري للبلاد الإسلامية ثم ساروا في خطة نفسه، ومشوا على نهجه ذاته. لم يحيدوا ولم يخالفوا إلا في فروع وتفصيلات لا وزن لها ... هؤلاء الذين وضعوا موضع القيادة هم العقبة الكنود في سبيل عودة الأمة إلى نظامها ومنهجها الذي ارتضاه الله لها، وارتضته لنفسها:

نظام الإسلام، ومنهج الإسلام.

فإذا زال هذا النفر من طريق الأمة، لم يعد هناك حائل دون الحل الإسلامي المنشود.

ثانيًا: إن القول بأن أمر الدين يحتمل الانتظار والتأجيل، بخلاف أمر الوطن - منطق غريب على العقلية المسلمة، وهو خطأ مرفوض من أساسه، والدين هو أغلى ما يعتز به المسلم وما يضحي من أجله، وإذا تعارض يومًا دين المسلم ووطنه ضحى بوطنه قرير العين من أجل دينه، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإلا استحق وعيد الله على لسان ملائكته: **{أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَآ}** [النساء: 97] بل يضحي المسلم في سبيل دينه بأبويه وأبناءه وزوجه وعشيرته وكل ما يحرص عليه الناس ويعتزون به. وحسبنا في ذلك نداء القرآن الكريم ومفاصلته الصريحة الحاسمة: **{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ 23 قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ**

حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ} [التوبة: 23، 24].

ولا أحسب مؤمنًا بالله ورسوله يستمع إلى هذه المفاصلة الرهيبة، المختومة بهذا التهديد المزلزل للقلوب، ثم يؤثر على دينه شيئًا آخر مهما عز عليه وغالي به. أو يقول: إن أمر الدين يحتمل الإرجاء والإمهال.

ثالثًا: إن الحل الإسلامي الذي ننادي به، ليس «ترفًا» يمكننا الاستغناء عنه إن شئنا، أجل، إنه ليس من «النوافل» و«الكماليات» بالنظر إلى معركتنا المقدسة التي نخوضها. وإنما هو - كما أكدنا غير مرة - ضرورة حتمية تتطلبها معركتنا مع العدو اللئيم، الذي لم تنته أطماعه بعد، والذي تسانده وتحميه قوى عالمية جبارة لا تخفي على أحد منا.

أعني لو أننا حصرنا نظرنا في دائرة المعركة الكبرى التي نعيشها وما تتطلبه من إعداد وتعبئة، وما تقتضيه من تغيير وتطهير، وما تستلزمه من شروط وأسباب، وما تحتاج إليه من قوى وطاقات - لأيقنا أن مسيرتنا إلى الحل الإسلامي أول واجب علينا، إن كنا نريد النصر على عدونا حقًا.

وهذا ما نبينه في السطور التالية:

(أ)إن الحل الإسلامي - لا غيره - هو الذي يهيئ الجو الإيجابي، والبيئة المساعدة لتكوين الفرد المؤمن، الذي يشرى الحياة الدنيا بالآخرة، ويشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، ويوقن أن الرزق والأجل بيد الله، فلا يحجم ولا يتردد، وإنما يخوض المعارك متوكلًا على ربه واثقًا بمعونته، معتزًا بالحق الذي يحمله، مؤمنًا بالغاية التي يجاهد من أجلها، ضامنًا لإحدى الحسنيين: النصر أو الجنة. فلا جزع ولا يأس، ولا جبن ولا فرار. شعاره قول الله

تعالى: **{قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ 51 قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ}** [التوبة: 51، 52].

(ب)الحل الإسلامي - لا غيره - هو الذي يعد الأمة للجهاد الحق ويوفر طاقاتها المادية والبشرية لحرب عدوها ويجعلها أمة من فولاذ لا من ورق، وينفي من حياتها أسباب الضعف وعوامل الهزيمة كما ينفي الكبر خبث الحديد، ويطهر حياتها السياسية والاجتماعية والثقافية من «الميكروبات» التي تلوثها، وتعرضها لأشد الأخطار، ومن السوس الذي ينخر في كيانها من حيث تشعر أو لا تشعر ... من الميوعة والتخنث والتحلل، الذي يعمل في أخلاق الأمة وعزائمها عمل النار في الهشيم ... من التفسخ والبلبلة والتمزق الذي ينشره الأفاعي من دعاة الأفكار السامة، والهدامون من عبيد المبادئ المستوردة.

(جـ)الحل الإسلامي هو الذي يحرر الأمة من التضليل الحزبي والتخريب الفكري، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، الذي يقسم الأمة إلى أقلية مترفة تشكو من التخمة، وأكثرية محرومة تشكو من الجوع وهذا باب الدمار، ونذير الانهيار، حسب سنة الله تعالى في هلاك الأمم وفنائها: **{وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا}** [الإسراء: 16].

(د) والحل الإسلامي هو الذي ينشئ الشعب المتماسك تماسك البنيان، يشد بعضه بعضًا، وينشئ فيه وحدة الاتجاه والفكر والشعور حتى يصبح كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله فلا عداوة بين الفئات ولا صراع بين

الطبقات، ولا تمييز بين العناصر: **{إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}** [الحجرات: 10] كما قال الله سبحانه، و**«المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»** كما قال رسوله صلى الله عليه وسلم .

(هـ)والحل الإسلامي هو الذي يعالج الانفصال بين الحكام والشعوب. فالحاكم الصالح في نظر الإسلام هو الذي يقوم مقام رسول الله في أمته، وقد وصف الرسول نفسه بقوله: **«إنما أنا لكم مثل الوالد»** ووصفه الله بقوله: **{لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ}** [التوبة: 128].

ووصف الحسن البصري الإمام العادل بأنه القائم بين الله وعباده، يسمع من الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم، وهو في رعيته كالأب الشفيق على ولده يربيهم صغارًا ويعلمهم كبارًا.

فلا غرو أن تحوطه القلوب بالحب، والأنفس بالبذل، والأيدي بالحماية، والألسنة بالدعاء. وقد جاء في الحديث: **«خيار أئمتكم**[35] **الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم**[36] **وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم»**.

(و)والحل الإسلامي هو الذي يحل عقدة الخلاف المزمن بين العرب بعضهم وبعض، ويجعلهم صفًا واحدًا على منهج واحد وهدف واحد، ووراء قائد واحد، فالمنهج هو الإسلام، والهدف أن تكون كلمة الله هي العليا، والقائد

---

(35) الإمام هنا هو رئيس الدولة.

(36) الصلاة هنا جاءت بالمعني اللغوي، وهو الدعاء: أي تدعون لهم ويدعون لكم.

هو الرسول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى.

وبذلك يكونون الأمة الوسط، والمجتمع المتوازن، فلا مجال ليمين ولا ليسار، ولا تبعية لشرق ولا لغرب ولا انقسام بين ثوريين ورجعيين. إنما الجميع مسلمون، اتحدت غايتهم ومنهجهم كما اتحدت عقيدتهم وقبلتهم. فإذ دخلوا معركة مع العدو الكافر، دخلوها يدًا واحدة تباركها يد الله، فإن يد الله على الجماعة: **{إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ}** [الصف: 4].

(ز)والحل الإسلامي هو الذي يزيل الهوة التي حفرها الاستعمار بين الدول الإسلامية بعضها وبعض، ووسعتها القومية العلمانية، والعصبيات الجاهلية، والأنانيات الحاكمة، فليس لهذه الدول علم تجتمع تحته إلا الإسلام. فإذا نودي بالعودة إلى الإسلام لم يعد هناك عذر لمتخلف في الانضمام إلى الركب المؤمن. وإذا تخلفت حكومة ما فإن شعبها سيلفظها ويلعنها، لأن شعوب هذه الأمة دائمًا مع الإسلام ونداء الإسلام وقافلة الإسلام.

وبهذا لا يكون العرب وحدهم في المعركة مع عدوهم القابع في عقر دارهم. سيكون معهم: الباكستانيون ومسلمو الهند، والأفغان، والإندونيسيون، والملاويون، والنيجيريون، والصوماليون والأتراك، وغيرهم من الشعوب المنتمية في الإسلام، المنضوية تحت راية: «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

(ح)وأخيرًا ... إن الحل الإسلامي هو الذي يجعل الأمة أهلًا لنصر الله تعالى وإمداده، ويجعل ملائكة السماء في تأييدها، وأشجار الأرض وأحجارها

في خدمتها[37].

ونصر الله ليس حديث خرافة ولا وهمًا من الأوهام، إنه حقيقة توقن بها هذه الأمة في أعماقها. حقيقة عرفتها من كتاب ربها وجربته في تاريخها فحين يتنزل نصر الله يستحيل كل شيء حول المسلمين إلى جند يقاتل معهم، ويعنيهم على عدوهم.

أرأيت إلى المسلمين في «بدر» وقد كانوا أقل عددًا فنزلت الملائكة تكثرهم، وكانوا في موقف استراتيجي سيء، وفي موقف نفسي حرج، لما أصابهم من جنابة، فأنزل الله المطر، لتثبت الأرض تحت أقدامهم، ويتطهر به من أراد التطهر، ويرتوي من يريد الشرب: **{إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ 9 وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}** [الأنفال: 9، 10].

{إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ} [الأنفال: 11].

إن حفنة من التراب رماها النبي في وجوه المشركين، لم تدع مشركًا إلا ملأ التراب عينيه وأنفه وفمه، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، لأن هذه الرمية لم تكن رمية يد محمد صلى الله عليه وسلم فقط، بل كان ورائها يد الله عز وجل: **{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ}** [الأنفال: 17]

إن على المسلمين أن يعدوا ما استطاعوا من قوة ولا يفرطوا في أخذ

(37) حيث يقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله، كما سبق.

الحذر واتخاذ الأسباب كما أمر الله، ولكن النصر بعد ذلك إنما هو من عند الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

وقد وعد سبحانه بنصر المؤمنين ولم يخلف وعده: **{وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ}** [الروم: 47].

حينما ينزل نصر الله يصبح العدو نفسه أداة مساعدة للمؤمنين في تحقيق أهدافهم، فهو يخرب بيته بيده، وبعين المسلمين من حيث لا يدري، كما قال تعالى في شأن يهود بني النضير: **{هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ}** [الحشر: 2].

وبالعكس من ذلك حين يمسك الله نصره عن أمة، لا ينفعها حينئذ عدد ولا عدة ولا علم ولا مال، ولا يغنيها قوتها وضعف عدوها أو كثرتها وقلته. وأوضح مثل لذلك من تاريخنا هو موقف المسلمين في «حنين»، وقد كان عددهم «12000» اثني عشر ألفًا، بعد أن كانوا «313» في «بدر»، وهذه الكثرة جعلت فريقًا منهم يركبه الغرور، ويتكل على الكثرة التي خرجت منذ أيام منتصرة بفتح «مكة»، ناسيًا معونة الله وتأييده، فلم يلبث القدر أن لقنهم درسًا بليغًا سجله القرآن في سورة التوبة: **{لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ 25 ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ...}**[التوبة: 25، 26].

إن كل شيء ينفع ويساعد عندما يتنزل نصر الله، وكل شيء يعوق ويضر إذا حرمنا نصره، وصدق الله العظيم إذ يقول: **{إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ}** [آل عمران: 160].

هذا هو الحل الإسلامي، وهذه هي نتائجه وآثاره، فهو الحل الصحيح، وهو أيضًا الحل الوحيد، وبدونه سنظل نشرق ونغرب بدون جدوى، وسنظل ندور في حلقة مفرغة، ونسقط في حفرة بعد حفرة. بدونه ستضيع جهود مخلصة، تحاول الإنقاذ، وتجاهد للخلاص، في غيره وحماس، ولكنها لم تتين - بعد - الطريق ... طريق العودة إلى الإسلام، الذي هو مقدمة ضرورية للعودة إلى فلسطين.

فهل من سميع وهل من مجيب؟

{قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ} [سبأ: 46].

{وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ} [الأحزاب: 4].

* * *